

رواية
هلوسات الأمسيات
عمر بن دحمان
تحفة
للنشر والتوزيع



هلوسات الأمسيات

.. رواية ..

عمر بن دحمان



هلوسات الأمسيات

نوعه: رواية.
الكاتب(ة): عمر بن دحمان.
التنسيق: بوذهبة زينة.
مسؤول(ة) الدار: أميرة بوقفة.
الطبعة الأولى: 2024.
الإيداع القانوني: 2024/08.
تاريخ الإصدار: 11/08/2024
ISBN: 978-9969-9783-4-6

دار تحفة للنشر والتوزيع

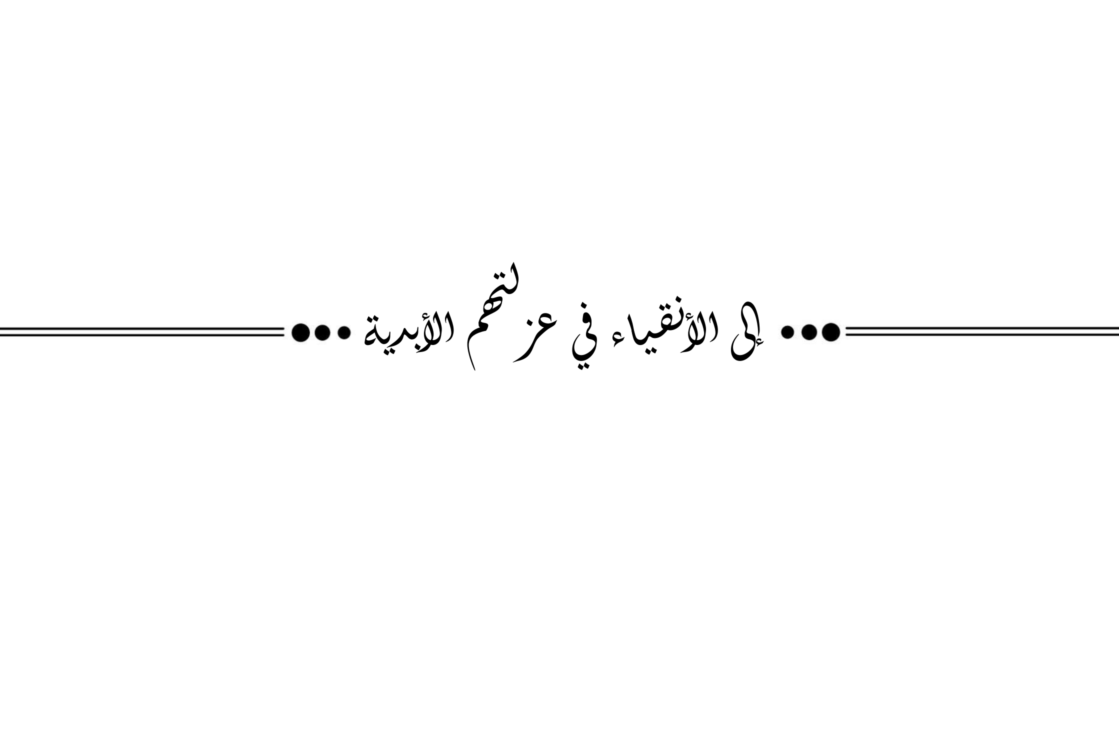
الجزائر- ولاية باتنة – بلدية بوزينة.
رقم الهاتف: 06.76.89.04.67
البريد الإلكتروني: tohfapublishhouse@gmail.com

•• هلوسات الأمسيات ••

- رواية -



هلوسات الأمسيات



••• إلى الأنقياء في عزلتهم الأبدية •••

(١)

فصل الصيف يقترب وسيحل قريبا... أحب الفصول إلى قلبي...

في شقتي المستأجرة المؤلفة من غرفة نوم ومطبخ ومغسل لا غير أقطن مع هرتي. أنظر للحظة في السقف فتبدو لي صورته مريبة في هذا الغبش الصباحي. ألتفت إلى الساعة فأجدها تشير إلى السابعة إلا عشر دقائق... بقايا النعاس الصباحي ما تزال مسيطرة على إدراكي، لكنني تذكرت أن اليوم عطلة لا عمل فيه، فاغتنمت الفرصة لأختلس المزيد من لحظات النوم الصباحي اللذيذ...

قبل نحو شهر رحلت عني هرتي وتركتني وحيدا. أكلت الجبن المسموم الذي وضعته للفأر أسفل الطاولة، ورأيتها تنط وتتوجع واختفت، ولم أعثر لها على أثر بعدها. وسمعته يضحك في جحره في جدار المطبخ. الماكر ابن الماكر سينال عقابه حتما. وأتذكر هرتي وأحزن. وخمنت أنه في قمة السعادة برحيلها. فلتفرح أيها المغرور ولتأخذك خفة من الزهو. ليس إلا نحن الآن في هذا المكان البائس. ولتعلم أنني لا أملك الرغبة الكافية لأنتقم منك، أو أن أجلب هرة أخرى تترصدك. وهذه المرآة كاذبة، والضوء خافت لا يضيء كل حقيقتي. ولكن قطعة فقطعة وتصير أنت مؤنسي.

كنت أتغاضى وأترك له فتات الخبز أسفل الطاولة، وأمام جحره في المطبخ ذي الجدران المتسخة. وبعد فتات الخبز انتقلت إلى القليل من الجبن، ثم إلى قطعة كبيرة منه، ثم إلى قطعة كاملة. لم يصدق كرمي معه فظن أن الهذيان بدأ ينال مني. وكذلك كنت أعتقد مع نفسي.

بعد أيام أو أسابيع، وليس أشهرا، صار يشاركني الطعام من دون خوف أو وجل. كان فأرا وسيما وديعا، وبدا لي نبيها أيضا. وبدأت أحس بأننا من طينة واحدة.

وتخيلت نفسينا في قارب واحد نبحر في بحر بلا ساحل، بحوزتنا قربة ماء والكثير من المعلبات بتاريخ نهاية صلاحية لا ينتهي.

وصرت أعظه أخيرا، وكان ينصت إلى كلامي ويستجيب لمواعظي. أقول له: «عليك أن تستحم يا صديقي، ألا تعلم أن النظافة من...» وأسكت حتى لا أجرح مشاعره أكثر، لكنه يقاطعني بصوته القاطع: «من الإيمان يا صديقي... من الإيمان!». وأحس من شدة الدهشة بتيار كهربائي يصعق ناصيتي فتتوقف حواسي عن الاشتغال للحظات، ثم لما يرجع إلي وعيي أجده اختفى.

وصرنا نتخاطب بلغة بيننا لا يفهمها غيرنا، قلت له مرة: «شارباك طويلان؟» قال لي: «أكصهما ...» وأصحح له: «قل: أقصهما...» وأضيف: «وأشنانك؟» قال لي: «أنزف أسناني بالفرساة والمعدون...» وأتظاهر بالفرح وآخذه في حضني: «يا للروعة! أنت فأر ولا كل الفئران... وأنا الذي كنت أفكر في سحقك. بل لتنسحق قطط العالم أجمع، ولتحيا أنت وأمثالك..»

ويهجم علينا النعاس فجأة ونمضي لننام. وكنت علمته كيف يحكي الحكايات فصار يحكي لي عن مغامراته مع فأرات المدينة. وسميته بسبب ذلك "فأر الحكايات". بدا لي حظه عاثرا مثل حظي، وكان يحكي ويتنهد. وكان يسألني: «أيليك هذا بفأر مثلي؟» وأجيبه: «كلا يا صديقي... لا يليك هذا بفأر مثلك.» وأدغدغه، وينطلق في الضحك بصوت عال، وأشاركه الضحك بصوت عال أيضا، وننام ونحن نضحك. بينما يتناهى إلى سمعي حديث جاري العجوز مع زوجته وهو يهمهم بكلام ربما كان يخصني، لكنني لم أعره أذني، ونمت بجواربي كعادتي.

في الصباح أفيق من النوم متأخرا كغير عادتي. أبحث عن صاحبي فأجده غادر علبة الأحذية التي فرشتها له بقطن اشتريته من صيدلية الحي، لكنه غادر سريره الملكي مبكرا إلى مكان أجهله. لعله عاد إلى جحره، أو هام على وجهه مثلما كنت أنا أهيم على وجهي زمن تعاستي. فللفئران أيضا تعاستها.

كنت أخبرته أمس بعزمي على قضاء عطلة نهاية الأسبوع على ساحل البحر الصخري، أصطاد السمك الفضي وأملأ صدري بهواء البحر العليل، وإني أقترح عليه مرافقتي ليريح أعصابه وذيله من صداع المدينة الذي لا ينتهي، ونسيان بعض همومه مع معشوقاته المتعجرفات، الباحثات عمن يملك مجرى مياه من آخر طراز أو شيئا من هذا القبيل. لكن صاحبي الذي لا يملك إلا شاربيه المقصوصين وذيله البشع اختفى من دون أن يعلمني.

أصل إلى مكاني الأثير وحيدا كعادتي، أملأ صدري بعبق البحر المترامي حتى تؤلمني أضلعي وترشح من بينها كآبتي وسأمي. أرمي بنظري إلى البعيد وأحس بأنني ولدت من جديد في لحظة سكون أسطورية، وأنادي البحر بملء فمي:

«أيها الأزرق الكبير المبجل...كم اشتقت إليك! ويا طائر النورس ذي الصوت المزعج...كم أمقت صوتك أيها البشع.».

وللبحر رائحة مميزة لذيذة تدغدغ خيشومك وتنسيك مشكلات العالم أجمع، ومياهه بألوان مزيج بين الأزرق والأخضر تجعلك تحلم وأنت مفتوح العينين والأذنين والأنف والفم، فيستعذب لسانك ملوحة الرذاذ المتطاير لمياهه. لكنها ملوحة تذكرني بخيباتي القديمة.

على الصخرة أقعد وأهيئ الطعم لسمكة أو سمكتين أو أكثر. أيتها الغبيات الحمقاوات اقتربن وتناولن غداءكن اللذيذ. أعلم أنكن جائعات، وضحكاتكن أسمعها بوضوح من هنا. أنا الشرير آكل السمك المقلي والمشوي المتبل بالبهارات وكثرة الحار. ومشروب غازي أفتت به ما علق بالبلعوم من دهن وزيت محروق. سمعت مرة أحدهم يقول بناء على وصية طبيب يعرفه إنه لا يستحب الجمع بين المشروب الغازي والفلفل الحار، وتذكرت خرافة اللبن والسمك. وأتذكر هرتي المسكينة. كانت تنتظرني بشغف كلما خرجت إلى البحر للصيد، ولما أعود أسمع مواءها من آخر الحي، فتوقظ قطط الحي والأحياء المجاورة وينطلقون جميعا في موائهم يهللون فرحا بقدوم المسؤول الرفيع في زيارته السرية إلى مدينتهم المنسية.

وأفتح الباب وتنطلق هي بمواء مجنون من أجل السمك. إلى الآن لم أجد التفسير المنطقي لهذا العشق الجنوني الذي يربط القطط بالأسماك! من أين لأجداد القطط بمعرفة السمك الذي يسكن البحار والأنهار؟!

وتتمسح هرتي برجلي فأتعثر بها وأكاد أقع، فأركلها خارجا وأغلق الباب، وآكل السمكات وحدي. وأسمعها تتعذب في الخارج لصق الباب، وأسمع لعنات جاري من شقته فأفتح لها الباب بسرعة حتى لا تفضحني أكثر.

ها قد عدت إليك أيها الأزرق الكبير مبتهجا، ومنتصبا، ومنصتا لترحيبك بي، ومداعبا بناتك الصغيرات، الودودات، المالحات، وهن يلعبن ويمرحن ويتحرشن بي. موجة تتلوها موجة تنطح الصخور الملساء كخرفان صغيرة غبية. ومستعطفا كرمك أن تهب صنارتي سمكة أو اثنتين أو أكثر... أيها الكريم المعطاء.

بعد هذه المقدمة الرومانسية القصيرة، والاستعطاف البريء، أضع قفتي الصغيرة في مكان آمن وبداخلها خبز، وجبن، وعلبة تونة، وعصير. مذ تعرفت إلى صاحبي الجديد وأنا أتناول الجبن يوميا، هكذا اتفقنا أن أطعمه جبنا كل يوم ويحكي لي حكاياته ومغامراته مع فأرات المدينة. على أن أطلب منه التجسس على أسرار جيراني في وقت لاحق.

كان يتألم من رؤية فتات الخبز وكان يغمغم: «تطعمني جبنا أو أصوم عن الكلام.» وأقول له: «بل أطعمك جبنا طريا وتحكي لي حكاياتك يا فأر الحكايات.» وأحس به ينتفخ ويسألني: «ومن فأر الحكايات هذا يا سيدي؟» وأجيبه: «أنت يا قبيح... إنه اسمك الذي اخترته لك، ألم يعجبك!». يتظاهر بالتفكير: «بلى يعجبني... إنه اسم جميل. ما يهمني أكثر ألا تتراجع عن اتفاقنا.» قلت له: «لا، لن أتراجع يا ماكر... ستجدني عند حسن ظنك بي.» وأسمعه يصيح: «يا للهول! يعني سأتناول ألف جبنة وجبنة!!» وأتعجب من ثقافته الفأرية وأصيح في وجهه: «ألف جبنة وجبنة أيها الماكر؟! ما أحسب فأرة عاقلة ترضى بالعيش مع مكرك.» ويجيبني بثقة وعيناه مغمضتان: «إنني أرضى بواحدة مجنونة مثلي بشرط أن تكون شقراء.»

وأصمت قليلا ثم أنفجر ضاحكا، ويشاركني الضحك بدوره ونضحك معا بهستيرية، وننام ونحن نضحك.

صاحبي الناطق العجيب غائب والوحدة تشعرني بالذبول، لكن البحر هادئ وموجاته وديعة، وصوت البواخر يأتي من مكان قريب. وهناك في الأفق البعيد سفن أخرى تقترب، وأخرى راسيات تنتظر دورها لتفرغ شحناتها من السلع في الميناء. أرمي بالطعم في الماء المالح وأترقب توتر الخيط...

يمضي الوقت رتيبا وأحس بالجوع ينهش معدتي وأمعائي. لطالما كنت أتساءل أيضا عن سر هذا الجوع البحري الغريب، كأنما البحر غول خرافي يمتص منك طاقتك من دون أن تشعر.

أثبت القصبة بين الصخور جيدا وأمضي لقفتي لأدفع ما في جوفها لجوفي. أدرت قبعتي الرياضية إلى الخلف ورفعت غطاء القفة فأفاجأ به ممددا على ظهره وبطنه المنتفخ يصعد ويهبط وهو يشخر في سلام ودعة وبراءة، وحوله بقايا أغلفة قطع الجبن، أما كسرة الخبز فبقيت على حالها مع علبة التونة.

تجمدت في مكاني من الفجأة، ووجدت نفسي في حالة بين الغضب والحلم والدهشة... وبعد أن استوعبت ما رأته عيناي واخترت الإحساس المناسب لهذا الموقف، مددت يدي وأمسكته بهدوء من طرف ذيله البشع، ورفعته إلى الأعلى فانتبه وبدأ يصيح: «أنزلني.. أنزلني.. أنزلني.» أما أنا فتظاهرت بالغضب من فعلته وتوجهت به إلى الحافة الصخرية ملوحا به صوب ماء البحر: «أيها الخائن البطن، سأرمي بك إلى الأسماك المتوحشة لتلتهمك لحما وعظما...كيف تجرأت على انتهاك حرمة قفتي وأكل غدائي يا نذل.»

وبينما كان يزداد اضطرابا وهو يصيح من ألم ذيله والعالم الذي انقلب فجأة من حوله، راح يترجاني ويسترحمني: «أرجوك يا سيدي.. لن أكرر فعلتي أعدك.. أعدك.. سامحني أرجوك.»، وبعد أن يئس من النجاة هم بقضم أصبعي فطرحته أرضا، ثم لم أدر كيف اختفى في لمح البصر بين الصخور. ثم خاطبته متظاهرا

بالغضب الشديد: «يا خائن.. يا فأر النحس.. لا أريد رؤية وجهك البشع مرة أخرى.» ثم انتبهت لخيط الصنارة يتوتر فهرعت إلى القصبة وتركته.

بعد ساعة كنت اصطدت ثلاث سمكات أنيقات ونسيت أني لم أتناول غدائي بعد. رجعت إلى القفة وأخرجت منها قطعة الخبز وعلبة التونة وعلبة العصير. وفيما أنا منشغل بالأكل، لاح لي من بعيد فوق صخرة ينظر إلي بعينيه الصغيرتين. بدا لي حزينا وخائفا وشعرت برقة طفولية تجاهه فخاطبته بهدوء قائلا: «تعال... لا تخف. لقد سامحتك يا صديقي، كنت أمزح معك، صدقني. اقترب لتشاركني شُرب هذا العصير اللذيذ.. أُنظر إنه مصنوع بنكهة الجبن. ها اقرأ ما كتب عليه.» لكنه لم يحرك ساكنا، وكان واضحا أن الثقة بيننا قد اهتزت بعد الذي جرى بيننا قبل ساعة.

أفرغت ما حوته العلبة في جوفي وتجشأت، وبعد مدة لمحته في مكان أقرب من الأول. كان يبدو خائفا، بل مذعورا من بقائه وحيدا في هذا المكان المعزول، ولا سيما بعد أن رآني أهم بجمع أغراضي للانصراف، بعد أن أبصرت سحبا داكنة تتجمع في الأفق تتقدمها نسمات خفيفة تنبئ بتغير مفاجئ في حالة الطقس. وكانت العادة في مثل هذا الوقت أن يتغير الطقس وتسقط أمطار رعدية مفاجئة كل مساء تقريبا. وخاطبت صاحبي المرعوب أخيرا: «تأتي معي أم تبقى وحدك هنا؟».

ظل ساكنا في مكانه فوق الصخرة يحدق في السحب المقتربة، لكن صوتا عنيفا جعله يقفز من مكانه مرتاعا وينقز إلى داخل القفة وهو يرتعد. هدأت من روعه وأنا أضحك قائلا: «أيها الأحمق الجبان! لم يكن ذاك إلا صوت صفير باخرة في الميناء.»

وسألني: «ما هي الباخرة؟ وما هو الميناء؟»

وأجبته برفق حتى نتصالح أكثر: «أترى تلك البواخر في عرض البحر؟ إنها تنتظر دورها لترسو في الميناء وتفرغ حمولتها من السلع...»

وواصلت بخبث: «أرأيت الجبن الذي التهمته وحدك قبل ساعة؟ هي التي جاءت به من بلاد الأجبان».

- من بلاد الأجبان!!

- نعم من بلاد الأجبان والفأرات الشقراوات الأنيقات... البلاد التي يحلم بها كل فأر يعيش في تعاسة في هذه المدينة.

وقاطعني كمن اكتشف سر العمر: «وهل ترجع البواخر إلى بلاد الأجبان؟»

وأجبته بلطف: «أجل يا عزيزي، لتحضر لنا المزيد من الأجبان...»

فجأة، بينما نحن نسير في طريق عودتنا إلى البيت، لمحته ينط من القفة يسرع الخُطى صوب الميناء... استوقفته فلم يستجب ولم يحفل بندائي، وواصل عدوه حتى توارى عن ناظري. كان ذيله البشع آخر ما رأيته منه. وعدت إلى البيت وحيدا، بل برفقة سمكاتي الأنيقات وسط مواء قطط الحي المتشردة. كنت موقنا أنه سيرجع مساء لكي يستمتع بأكلة السمك بالجبن، ويحكي لي حكاياته مع فأرات المدينة. لكنني انتظرته الليل كله ولم يرجع...

كان المطر يهطل بغزارة عندما أويت إلى فراشي بعد عشاء سمكي لذيذ. لم أهتم لهذه الأمطار الصيفية المباغتة بقدر ما ظللت منشغلا بصديقي الناطق العجيب الذي غادرني من دون كلمة وداع صادقة.

أين هو الآن؟ وماذا عساه فاعلا في ذلك الميناء القذر؟ هل صدق مزحتي بشأن البواخر المليئة بالجبن القادمة من بلاد الأجبان فراح يلهث خلف السراب؟

(٢)

وحيد أنا بغرفتي والتعاسة تخنقني...

أشعلت تلفازي الصغير ورحت أتنقل بين قنوات الأخبار، والرياضة، والأفلام، وبرامج الأطفال... كانت الإشارة تضعف أحيانا والكهرباء تنقطع كلما أرعدت السماء. يا لرائحة المطر المغبر وقت الصيف كم أهواها! ولكن المطر خف

فجأة وانقطع أخيرا دفعة واحدة ما عدا أصوات قطرات تطرب الأذن الساهرة. لا ريب أنها سحابة صيف كانت في طريقها إلى مكان ما، فلما رأتها هذه المدينة المتسخة ترجتها أن تتكرم عليها ببعض القطرات لتزيل بها عن وجهها الكالح بعض الغبار والكآبة.

كان فيلما شائقا ومرعبا ذاك الذي قررت مشاهدته في هذه السهرة. كانت أفلام الحركة والتشويق تستهويني، وكل ما له صلة بالمغامرة في الأماكن المفتوحة، كالبحار، والغابات، والصحاري. كنت أستمتع بها لولا تلك الفواصل الإشهارية المزعجة التي تجعل مدة عرض الفيلم تتضاعف عدة مرات. وهذا الفيلم تحديدا شاهدته قبل عام أو نصف العام فيما أذكر. لكن الفيلم الجيد مثل الطبخة الجيدة لا تمل من تكرار تناولها بين أوقات متباعدة كلما سنحت الفرصة لذلك. قصة الفيلم أعرفها تقريبا، والبطل أتذكره جيدا، لكن ذاكرتي في غالب الأحيان لا تحتفظ بالكثير من التفاصيل، خاصة إذا مرت مدة طويلة على مشاهدتي الأولى للفيلم.

كنت أيضا من المغرمين بمشاهدة مقابلات الكرة، كرة القدم على وجه التحديد، كشأن معظم الرجال العاديين وغير العاديين. كانت تستهويني أكثر البطولات القارية والدولية، كشأن معظم الرجال العاديين وغير العاديين أيضا. وأحيانا كنت أتفلسف مع نفسي بشأن هذا العشق الجنوني لهذه اللعبة تحديدا، وأدعي، مع نفسي طبعا، أن السبب وراءه هو أننا نتصور اللعبة حربا ماتعة تختزل أحداثها على مستطيل أخضر في ساعة ونصف من الزمن أو أكثر بقليل. في صراع مقنن ومتحكم في عنفه إلى حد بعيد، ينتهي بمنتصر ومنهزم أو بتعادل الطرفين، بلا سفك للدماء ولا خسارة للأرواح ولا هدم للبيوت.

تذكرنا اللعبة أيضا بحياتنا التي نحياها، نتصارع فيها ونصارع كل عائق يقف في طريقنا ويحول بيننا وبين بلوغنا أهدافنا فيها. هكذا اختصرت لعبة كرة القدم الحياة برمتها، فثم لاعبون يلعبون ويتصارعون من أجل بلوغ الهدف والانتصار،

وثم عوائق وقواعد يجب أن تحترم وإلا تدخل الحكم ليثني أو يعاقب أو يفصل، وثم رفاق يقدمون لك يد المساعدة، ومدرب يعلمك كيف تلعب ويمرنك حتى تتقوى أكثر. وثم جمهور يستمتع بذلك التدافع والمناجزة، ويناصر أو يضايق، ويفرح أو يحزن وينتفض ويرمي بالمقذوفات والمحارق.

أحسست بالعطش في منتصف الفيلم المثير، بسبب أكلة السمك بلا ريب. انتهزت الفرصة مع بدء فواصل إشهارية وقمت لأحضر قارورة ماء بارد. في الواقع كانت عادتي أن أترك مصباح الرواق مشتعلا طوال الليل، مصباح اقتصادي لا يستهلك الكثير من الطاقة. وأن أحمل معي قارورة الماء إلى غرفة النوم كي لا أضطر إلى مغادرة السرير فأضيع جزءا من نعاسي الثمين. هذه عادة شائعة عند الكثير من أمثالي من الكسالى وصائدي البعوض.

كان مطبخي ضيقا وكل ما فيه كان صغير الحجم. فتحت النافذة الصغيرة للتخلص من رائحة السمك المقلي العالقة في الجو. حملت قارورة الماء وحين اقتربت من غرفة النوم خيل إلي أنني سمعت صوت خشخشة آت من موضع حاوية القمامة تحديدا. إنها الصراصير بلا شك، أو إنه فأر جائع من فئران الحي تسلل إلى شقتي الهادئة بحثا عن شيء يسد به رمقه.

عدت لاستكمال مشاهدة الفيلم المشوق. أما هؤلاء الزائرون من المخلوقات الصغيرة فلم أعد أكترث بهم ما داموا مسالمين. كما أنهم يؤنسون وحدتي، خصوصا لما يغادر جاري المسن وامرأته شقتهما المقابلة، ويقصدان بيت ابنهما في مدينة أخرى قريبة حيث يقضيان ليلة أو ليلتين ثم يعودان بعد شجار ينشب بين الحماة والكنة المتكبرة بحسب ما كانت تلتقطه أذناي من حديث يدور بينهما كلما عادا من إحدى زياراتهما النادرة لابنهما صاحب الأسفار الكثيرة. كنت أسمع العجوز الغاضبة تصرخ وتقسم بألا تزور بيت ابنها مرة أخرى ما دامت تلك الماكرة، كما كانت تصفها، تتحكم فيه. وأنه إن أراد رؤيتها فليزرها هو وليحضر وحده من دونها. وكان جاري المسن يهدئ من سورة غضبها ويقول: «فكري في أعصابك وصحتك يا امرأة.» وكان يسعل

بقوة، وتصمت هي وتقول له: «سأحضر لك دواءك، لا تجهد نفسك.» هكذا كان يصلني حديثهما من دون قصد التلصص من وراء الجدران على أي حال.

كانت العمارة حيث أقيم صغيرة أيضا، وعتيقة نوعا ما، تتألف من أربع طوابق وشقق بغرفة أو غرفتين في كل طابق. قضى صاحبها قبل سنوات في حادث سير، وخلفته امرأته في التكفل بالمبنى وتحصيل الإيجار. كنت أناديها بالخالة، لديها من الأبناء ثلاثة وربما كان بينهم بنات لا أعرفهن. وكانت تسألني: «متى تعقد قرانك يا ولدي؟ كم بلغت من العمر الآن؟» وكنت أخجل وأجيبها: «عما قريب يا خالة.. عما قريب.» وأستعجل في الانصراف متملصا قبل أن تكرر على مسمعي أسطوانتها مذ علمت بحالي وأنني غريب ليس لي أهل ولا عشيرة. لكنها كانت تهددني بفسخ عقد الإيجار إن لم أعجل بتسوية وضعيتي الاجتماعية. أكيد أنها كانت تمازحني ولم تكن جادة في مسألة الطرد هذه.

لست أدري من كان يورطني معها من الجيران، لكن الجميع كان يشهد لي بحسن سيرتي، وكنت أحس بأنني أحظى بالاحترام بسبب مسالمتي، ربما. وكان خطر على بالي مرة أن أجيبها مازحا: «كيف أسوي وضعيتي يا خالة وأنا أقتسم راتبي معك كل شهر!» لكنني أحجمت، وتذكرت زوجها ودعوت له بالرحمة.

نظرت إلى الساعة فوجدتها تقترب من منتصف الليل. أنهيت مشاهدة الفيلم قبل قليل وأنا الآن بصدد البحث عن البعوضة التي ما فتئت تزعجني بطنينها كلما أطفأت الأنوار. لم يكن الحر شديدا فنحن في بداية الصيف، والمطر الذي نزل قبل ساعتين أو أكثر جعل الجو أكثر لطفا. أريد أن أحظى بنومة هادئة وأحلام سعيدة.

رحت أطلب النوم بعدما طحنت البعوضة براحة يدي. يقال إن أحسن وسيلة للدفاع هي الهجوم. وغدا يوم عمل ولابد أن أحظى ببعض الهدوء وأن أنعم بالقليل من الراحة. بضع سويعات تكفي لأستعيد نشاطي وقوتي. وضعت رأسي على الوسادة وخيل إلي مرة أخرى أن صوت الخشخشة صار أقرب هذه المرة. هل كنت في حالة تسمح لي باتخاذ قرار حاسم بمعرفة مصدر الخشخشة؟ كلا! فلتخشخش كما

شئت أيها الصرصور أو الفأر أو أي مخلوق كائنا ما كنت... لن أبالي بك الآن ما دمت لست بعوضة.

(٣)

دق المنبه في تمام الساعة السابعة صباحا...

لم يكن المنبه ما أيقظني، ولكنها نسمات الصباح الندي المتسللة عبر شباك النافذة. وكذلك هدير الشاحنات والحافلات كل صباح باكر. كان صوتها مزعجا يصعب التأقلم معه، ولكي أواصل نومي كما أهوى كنت مضطرا لغلق الجزء الزجاجي من النافذة لعزل تلك الأصوات العالية أو التخفيف منها على الأقل. هذه هي سطوة المكان في المدينة تجبرك على أن تختار بين السيئ والأسوأ.

هو إذن يوم جديد روتيني. أخرج من شقتي حاملا كيس المهملات. وفي طريقي إلى عملي أشتري صحيفة وأمر على مقهى الحي لتناول قهوتي الصباحية لأطرد الخمول عن ذهني. وبعد مسير نصف ساعة تقريبا أصل إلى المكتبة العمومية حيث أقضي بحر يومي في الطابق الأرضي أصور الكتب والسجلات العتيقة.

كان عملي بسيطا، من وجهة نظري، لولا ما كان يسببه لي من صداع وألم بالعينين في نهاية الدوام. مئات أو آلاف من الأوراق تنتظر مني تصويرها من أجل حفظها من الضياع. كنت أعمل على تلك الآلة التي أعيت بصري، وكنت أعد نفسي جزءا منها وأنا أقلب أوراقا بالية ورقة بعد أخرى، بعناية وحرص وتركيز، فكان لزاما علي أن آخذ قسطا من الراحة كلما أنهيت تصوير كتاب أو كتابين.

كنت أفكر في هذه الكتب التي أبلاها الزمن، وكيف قاومت مرور الأحقاب والعصور؟ كم من الأصياف والأشتية مرت عليها؟ وكم يدا تداولتها وقلبت صفحاتها التي لم تكن بالية كما هي الآن؟ من حسن حظها أنها ستخلد لأزمنة إضافية، وأن أجيالا أخرى ستطلع عليها بفضل هذه الآلة العجيبة التي تشبهني... وبفضلي أنا طبعا.

كان عملي روتينيا إلى أبعد الحدود، لا إبداع فيه ولا تجديد. سوى أنه بين فترات متباعدة كنا نجري تربصات لتحيين معارفنا واكتشاف طرق وتقنيات جديدة في حفظ الوثائق والكتب القديمة. كان عملي تقنيا بحتا، لذا لم أكن أهتم بما تحتويه تلك الكتب من معارف أو معلومات. خاصة أن الكثير منها كان عسير القراءة، إلا ما كُتب منها بخط واضح. وعموما كنت أراها مجرد طلاسم لا فائدة منها بالنسبة لي. كنت أعلم أن بعضها نفيس وأنه مطلوب عند البعض من الباحثين المهتمين بإعادة نشر الكتب القديمة وطباعتها طبعات معاصرة، لكنني لم أكن لأهتم بالكثير من التفاصيل.

لم تكن تعنيني أيضا خبايا المكان الذي أشتغل فيه، كنت قليل الكلام ومتحفظا جدا. وكنت أغبط نفسي على هذا السلام الذي أحيا فيه، سلام حققته بكثير من التضحيات والتنازلات والتغافل. كنت أعمل شارد الذهن في أغلب الأوقات، إلا أنني كنت متيقنا من أن ما كان يدور من ورائي من همسات زملائي في نجواهم كانت تخصني، ولو في جزء منها. وكنت أتذكر هرتي وأتنهد. لم أكن أعير ذلك اهتماما البتة. لم تكن إلا أوصاف يلوكونها في أفواههم من أجل ملء الوقت الفائض عن الحاجة. مثل وصفهم إياي بقليل الكلام، وغريب الأطوار، والمتعجرف، والمنطوي، والمنعزل، والموسوس، والمبعوث، والمخبر... وهلم جرا. وأنا لم أكن لأهتم كثيرا بأمر نجواهم. ولكن ما كان يضايقني أحيانا ويشعرني بشيء مثل الجليد يملأ جوفي، حينما يدنو أحدهم مني في أثناء عملي لسبب من الأسباب.

في طريق العودة إلى شقتي أمر عبر الشارع الرئيسي وسط المدينة، ومنه أنحرف إلى شارع ضيق حيث تكثر المطاعم الشعبية. كان يستهويني هذا النوع من المطاعم بطبيعة الحال، وخاصة تلك التي تقدم حساء السمك، والسمك المقلي، والفلفل الحار. أجل، كانت رائحة السمك المقلي والمشوي تجتذبني مثل قط جائع، وأستحضر للتو صورة طبق من السمك المقلي وطبق آخر من الحساء اللذيذ بجانبه سلة الخبز البلدي، وقطع من الخبز الأبيض المحمص، وقنينة من زيت

الزيتون، وصحن صغير وضعت فيه قطعة من الليمون الأخضر، وقليل من الصلصة، وحبة كبيرة من الفلفل الحار المقلي. يقال إن تناول الفلفل الحار يفتح الشهية، وكنت أحس بذلك فعليا.

في الواقع كان الجو الممتلئ بدخان المقليات يثير في نفسي بعض الغثيان، ناهيك عن انزعاجي من زحام الجموع من الداخلين والخارجين للمحل الضيق. لذلك كنت أتعجل الانصراف وفي نفسي حاجة إلى المزيد من السمك. وأسمع صوت النادل قريبا من أذني: «أتريد المزيد؟» وأجيبه بفم ملآن: «شكرا لك... اكتفيت». ويردف النادل: «والمشروبات؟» وأفكر قليلا وأشير إلى قارورة صغيرة من مشروب غازي أسود اللون. أتخلص بعدها من سطوة المكان الذي أسرني في لحظة ضعف لمدة قاربت نصف الساعة. أغسل يدي وفمي من أثر تناول الطعام وأنصرف بعد دفع الثمن حاملا منديلا ورقيا أعبث به، ثم أرمي به في أول سلة مهملات أصادفها في طريقي.

كنت أدعي التحضر وأتجشأ بلطف غازات يمور بها بطن بدأ يتدلى، وسيستمر في ذلك ما دمت من عشاق الكسل والخمول والمشروبات الغازية المحلاة بكثير من السكر. يقال إن المشي من أحسن الرياضات التي يسهل ممارستها يوميا. فهو يجعل الجسم يتحرك بإيقاع رتيب وبدون جهد كبير، فيحفز جريان الدم فيصل إلى أقصى خلية في الجسم، وله فوائد جمة. لكن المشي بالنسبة لي لم يكن بدافع رياضي ولا قناعة شخصية، بل كان جزءا من روتيني اليومي، في رواحي وأوبتي بين مقر إقامتي ومقر عملي. وكنت دائما أعد رجلي وسيلتي المفضلة للتنقل من دون أن أدفع فلسا واحدا، ما عدا ما يصيب حذائي من آفات الطريق.

كان تجولي في المدينة الصغيرة ممتعا في الصباح الباكر قبل امتلاء الشوارع بالعربات من كل صنف، الداخلة إليها والخارجة منها، أو تلك المارة عليها مرور الكرام. وتكون الشوارع شبه خالية من المارة ممن يستهويهم النوم الصباحي، أو ممن لا يتحتم عليهم الاستيقاظ باكرا. أمر من أمام المحلات التجارية بأبوابها الحديدية

التي تصدر صوتا عنيفا يشبه لعلعة الرصاص عند فتحها وعند إغلاقها. وكانت المقاهي والمخابز السباقة لإطلاق النار بحكم طبيعة نشاطها الصباحي، وهكذا كان يمتزج في أنف من يمر بها روائح القهوة والخبز والحلوى، وبعضا من بقايا الأوساخ المتبقية مما خلفه عمال النظافة الذين يسارعون الوقت في صباحهم الباكر لينهوا عملهم قبل شروق الشمس.

المدينة مثل امرأة يتساوى مقدار جمالها وقبحها، فتتجمل بالمساحيق لتزيد مقدار الجمال على القبح، وتبالغ في ذلك من دون طائل. وأنا لا يهمني في مدينتي جمالها الحسي بقدر ما يهمني هدوؤها ووداعتها وصمتها الجليل. أريدها حكيمة وزاهدة لا تغتر بكثرة المساحيق وتغطية التجاعيد. أتذكر عندما جئتها أول مرة كنت شابا يافعا، جئتها من مكان ليس ببعيد، من قرية تقبع في سفح تلك الجبال التي تكسوها الثلوج شتاء وتبقى كذلك إلى منتصف الربيع أو بداية الصيف في الأعوام الباردة.

غادرت قريتي مكرها ولم أرجع إليها مذ ذاك، وربما لن أرجع أبدا. غادرتها مطرودا وليس بمحض إرادتي. بداخلي رغبة في سرد قصة مغادرتي لقريتي الهادئة، وربما كنت أحن إليها بعض الشيء، لكن نفسيتي متعبة الآن ومزاجي سيئ، ولابد لي من أخذ قسط من الراحة لأريح عيني المتعبتين.

أذكر يوما حينما كنت طالبا بالجامعة قبيل تخرجي فيها أنني كتبت قصة متخيلة تشبه ما جرى معي في الواقع، ونشرتها لي صحيفة مغمورة وفرحت لنجاح التجربة. وصار ديدني كلما ألم بي شيء مؤلم أن ألوذ بالكتابة، أكتب وأرسل بما أكتب للجرائد لتنشر لي. ونجحت في نشر قصتين لا غير، ثم توقفت عن الكتابة تماما. وحدث مرة أن أرسلت قصة للصحيفة التي نشرت لي محاولتي الأولى، واندهشت لما صدر في العدد الموالي منها متابعة نقدية لأحد النقاد المعروفين، ورحت أتخيل نفسي كاتبا عظيما بعد أن قرأت المقال النقدي عن قصتي أكثر من مرة. وفيه نعتني الناقد بالقاص المأمول، ووصف أسلوبي في الكتابة بالأسلوب الفريد من

نوعه، يجمع بين سحر الغموض والنفس السردي الطويل الذي يشبه الأسلوب الروائي.

كنت مثل فقاعة صابون ملونة انطلقت للتو وراحت تسبح بزهو في الفضاء. أو مثل عصفور صغير تعلم الطيران صباحا وراح يحلم ببلوغ السحاب في المساء. بعدها لا أدري ما الذي أصاب قريحتي، إذ فقدت فجأة شهوة الكتابة كأنما حلت بي لعنة ما.

حدث ذلك بعد أن هجرت قريتي وهمت على وجهي إلى المدينة باحثا عن عمل بشهادتي. لم يكن الأمر سهلا في البداية، فاضطررت إلى العمل في مهن محتقرة، وبعضها كان شاقا ومذلا. لم يكن لدي أقارب ولا معارف من أصدقاء أو أصحاب. وكنت كثير اللوم لنفسي لما أتذكر حماقاتي. كنت ملعونا بذاكرتي، لعنة كبلت مشاعري وحطمت طموحي وكاد كل شيء ينهار في لحظة طيش شبابي.

بعد سنوات طويلة لا زلت أحتفظ بقصاصتين من القصتين التي نشرت في بداية رحلتي مع الكتابة. قصتان حكيت فيهما شيئا مما حل بي في بداية حياتي وعنوان شبابي الأول، وشيئا من طفولتي.

(٤)

تشير الساعة إلى الثامنة مساء ...

فصل الصيف يزداد حرارة كلما توغلنا فيه أكثر. الظاهر أن صيف هذا العام سيمر خانقا. أفكر جديا هذه المرة في شراء مكيف هواء، أو مروحية كهربائية على الأقل. لكن ما كان يثني من عزيمتي عن اقتنائه هو الجو اللطيف الذي ننعم به في هذه المدينة الساحلية، وكذا سكني بالطابق الأرضي، الذي أنعم فيه بلطافة الجو صيفا، أما شتاء فالأمر يختلف. وكذلك، وهو الأهم، اقتناعي بأن هذه الأجهزة تسبب أمراضا تنفسية، والأهم من كل هذه الأسباب جميعا أن أدخر مبلغ المكيف

وأقتني به جهاز تلفاز جديد مثل تلفاز المقهى القريب لأستمتع بمباريات الكرة وحدي. أو أقتني ثلاجة كبيرة بدلا من تلك العلبة التي لدي.

كان تلفازي من النوع العتيق، صغير الحجم وشاشته لا تكاد ترى، اشتريته قبل ثلاث سنوات من سوق اللوازم المستعملة، أقنعني به البائع في لمح البصر حينما قال: «بطولة العالم على الأبواب يا رجل ...». وهنأت نفسي وشعرت بأنني اقتنيت شيئا ثمينا. وصرت أتمدد على مسافة قريبة منه على أريكة اشتريتها قبل ذلك من محل آخر لبيع الأثاث المستعمل، ما تزال صالحة للاستخدام لسنوات أخرى، أستعملها للجلوس والقيلولة والأكل أحيانا. لونها يميل إلى القرمزي أو الأحمر الداكن. وقد راق لي هذا اللون لأنه يريحني وينشرح له صدري. وعموما أحب الألوان الداكنة والحيادية في الأشياء التي أتملكها وفي ملابسي.

لم يكن اقتناء الأشياء المستعملة مما يستهويني، بل كنت مرغما على فعل ذلك حتى لا أتخلف عن دفع الإيجار الشهري. كان الإيجار يلتهم ربع مرتبي، وما تبقى أصرف منه، وأدخر منه جزءا لتحقيق أهدافي المستقبلية. كنت صارما في تدبير ميزانيتي حتى لا أضطر إلى الاستدانة أو أن أكلف نفسي أعباء إضافية لا ترحمني. وأي ضمان لدين يقدم لغريب الأطوار ولا يكلم الناس إلا لماما!

أذكر كيف قضيت ليلتي الأولى في شقتي المستأجرة. وكيف قدمت إليها واضطررت إلى قضاء الليل على الورق المقوى ملتحفا معطفي البالي. لم تطاوعني نفسي في أن أطلب المساعدة من جاري المسن لعدم معرفتي به وبطباعه في ذلك الحين. وفي اليوم الموالي زارني صاحب البناية بصحبة ابنه، حاملا معه فراشا وغطاء وبعض الملابس شبه الجديدة، وعلبة من الحساء الساخن. لست أدري من أخبره بأمر التحاقي بالشقة. لكن الرجل كان كريما وودودا معي. لم أشكره حينها على ما قدمه لي، فقد انعقد لساني ولم يترك لي مجالا للحديث.

أتذكر الآن كرمه الزائد معي وأحزن. وأتساءل: لماذا يموت الأخيار في وقت مبكر؟ كان في خريف العمر ولم يبلغ شتاءه عندما مات، رجل نادر لم يتجاوز الستين، لم أر مثله كرما وطيبة مدة عيشي بهذه المدينة.

كنا في منتصف فصل الشتاء حين حصلت على عمل في المتجر الكبير بأعالي المدينة. وكنت أخبرت صاحب المحل بأنني غريب وأنه لا مأوى لي. فكر صاحب المتجر قليلا ثم سمح لي باتخاذ المخزن الملحق مأوى إلى حين. واشترط علي أن يخصم ذلك من أجرتي، فقبلت مضطرا. كان عملي مقتصرا في البداية على حمل السلع، وتنظيف الأرضية، وتكديس النفايات من علب الكرتون وغيرها خارجا؛ ثم صرت أعمل على ترتيب السلع في الرفوف والمبردات الكبيرة. وكنت أساعد من يحتاج المساعدة في حمل أغراضه إلى مركبته.

وفي أثناء عملي اليومي تعرفت على صاحب المبنى وكان متعودا على التبضع من المتجر ذاك، وكنت أساعده بسبب عرجه في حمل مقتنياته الكثيرة. وحدث مرة أن أخبرني بطبيعة عمله، وتعبيرا منه على شكري قال لي: «لا تتحرج مني يا بني... أنا مثل والدك.» فبادرته في إحدى المرات: «ألديك شقة بغرفة واحدة للإيجار؟» وأخبرته بوضعي. تفرس الرجل في وجهي وابتسم وقال: «بني... اتصل بي مساء.» ودفع إلي بقصاصة تحمل اسمه ورقم هاتفه، وانصرف.

في المساء اتصلت به من هاتف المتجر. أذكر أن الجو كان عاصفا فلم أغامر بالخروج. اضطررت بعد أن انصرف الجميع إلى استخدام هاتف المتجر خفية. كان صاحب المتجر يتسامح مع بعض الأخطاء كأن تسقط شيئا فيتحطم فيخصم من أجرتك ثمنه من دون نقاش، أو تتغيب بمبرر أو من دونه فيخصم من مرتبك آخر الشهر، لكنه لم يكن ليتسامح مع استخدام الهاتف من دون إذنه، ونادرا ما كان يأذن بذلك لنا نحن المستخدمين البسطاء.

(٥)

يوم صيفي منعش، قررت فيه أن أتبضع...

خرجت من البيت صباحا من دون أن أتناول فطوري. مررت بمجموعة من الأطفال في ساحة الحي يحضرون أنفسهم بحماس بالغ لبدء مباراة في كرة القدم. هممت بأن أزجرهم وأحذرهم من مغبة التلفظ بالكلمات البذيئة، لكنني أحجمت عن فعل ذلك. عرجت على مقهى الحي وطلبت مزيج القهوة بالحليب وقطعة من الحلوى ما أزال مغرما بها منذ أيام الدراسة، حجمها كبير في شكل مثلث، مغطاة بالشكولاتة، وتتوسطها طبقة من الكريمة الرقيقة.

وصلت إلى المتجر الكبير في مركز المدينة القديمة، وكان يذكرني كلما دخلته بالمتجر الذي اشتغلت فيه قبل سنوات. متجر واسع ومنظم وكل ما يبحث عنه المرء يجده أمامه. أغراض كثيرة تنقصني، لكن ميزانيتي لا تسمح لي إلا باقتناء الضروريات كالعجائن، والبن، والسكر، والطماطم المعلبة، والملح، والزيت، والحليب، وربما أضفت بعض المشروبات، والبيض والبقوليات...

لم أكن أفقه في أمر الطبخ لذلك كنت أكثر من تناول الأطعمة الجاهزة والمعلبات. ولما أخبرني تلفازي أن ضررها يغلب نفعها فكرت في حالي ومآلي وتخليت عن بعضها طوعا وكرها، وقللت من بعضها الآخر. ولما عزمت على تعلم فنون إعداد الطعام اشتريت كتبا لأتعلم منها. تعلمت الأساسيات والأطباق العادية، وصرت أطهو لنفسي. أعد الحساء بأنواعه، وأقلي السمك، والدجاج، وأحضر السلطة، وأعد سندويتش البطاطس المقلية بالبيض، والجبن، والنقانق أحيانا.

وهكذا تمضي أيام العمر أقضيها بمفردي كالمسافر، حالما بشاطئ على جزيرة مهجورة، أو غابة وسط الجبال، أو واحة ظليلة في صحراء حارة، يحط فيها رحاله كي يستريح. يتمدد تحت شجرة وارفة الظلال، طيبة الثمار، ويغفو حتى تلفح قدميه العاريتين أشعة الشمس الحارقة، فيستيقظ ويغير مكانه لا غير.

وقفت قدام الباب حاملا أكياس التبضع، وسمعت جاري المسن يكح كعادته وينادي على امرأته طالبا منها شيئا لم أتبينه. لا يهمني الأمر. أدرت المفتاح ودخلت إلى شقتي من دون جلبة. وضعت الأكياس على الطاولة المربعة بالمطبخ، ورتبت المشتريات في الثلاجة، وشربت كوبين من الماء البارد. ثم انهمكت في تحضير وجبة خفيفة للغداء. كنت أجد متعة كبيرة في إعداد الطعام، وكنت أخصص أيام العطل لتجريب أطباق جديدة.

كان الأطفال في الخارج في هرج ومرج، وصخبهم يملأ المكان بلا كلل ولا ملل، يتشاجرون أحيانا ويتبادلون السباب والكلام البذيء ثم يواصلون اللعب كأن شيئا لم يحدث. ورغم ذلك كنت أرى أطفال الحي يحيون بلا قيود، مثل الكلاب الشريدة. يخصصون فترة الصباح للعب الكرة وفي المساء يقصدون البحر. وفي الأعم كان سكان الحي يقصدون الشواطئ في المساء بعدما تخف درجة الحرارة. وأنا بدوري سأحمل نفسي مساء إلى الشاطئ الصخري كعادتي لأمارس هوايتي المفضلة.

تعلمت الصيد باستخدام الصنارة صدفة. ما زلت أتذكر ذلك اليوم الذي زرت فيه البحر أول مرة، كنت في الثالثة عشرة تحديدا، عندما التحقت بالدراسة في المرحلة المتوسطة بمدرسة تقع بمدينة ساحلية قريبة من قريتي، وتشبه في ملامحها هذه المدينة التي أعيش فيها الآن. درست فيها ثلاث سنوات في المرحلة المتوسطة، وثلاث سنوات أخرى في المرحلة النهائية، لأنتقل بعدها إلى الدراسة الجامعية في مدينة أخرى أكبر حجما، ولكن لم يكن لها بحر.

في لقائي الأول بالبحر بدا لي مخلوقا عظيما، عالما ساحرا يكتنفه الغموض. كانت مراقدنا في المدرسة المتوسطة تطل على الشاطئ الصخري، وكنت أراه هائجا معظم الوقت في الشتاء، وكان صوته الهادر يصيبني بالأرق فتهجم علي الهواجس وينتابني الحنين لقريتي.

كانت إدارة المدرسة تخصص جولات مسائية لنا نحن طلاب الإقامة الداخلية إلى مناطق قريبة، من أجل التنفيس والاستمتاع قبل حلول موعد الامتحانات في

نهاية الموسم الدراسي. زرنا في أفواج مشيا على الأقدام الآثار القديمة، ومتحف المدينة، والغابة الجبلية، وشواطئ البحر القريبة. كنا نتداول على زيارة هذه الأماكن فوجا بفوج. ولما زرنا البحر طلب منا المرافق أن نلتزم الانضباط ونتبع كل التعليمات. كان يحمل آلة تصوير، وقال لنا: «من يرد منكم صورة للذكرى فليسجل اسمه ويدفع ثمنها فيما بعد.» سجلت اسمي وسألته: «هل تكون الصور فردية؟» وأجابني: «وماذا تريد أنت؟» قلت له: «أريد صورة لي وحدي أمام المنارة العتيقة.» ابتسم وقال: «لك ذلك».

قطعنا يومها مسافة الشاطئ الممتد من ميناء المدينة إلى الشاطئ الرملي. زرنا ميناء الصيد، ومررنا عبر النفق الصخري، واجتزنا المسلك الترابي الضيق. أخذنا صورة جماعية، وأخذ بعضنا صورا فوق الصخور تجاه البحر، ومع قوارب الصيد، وحرس السواحل، ولما بلغنا المنارة أخذت صورة بمفردي، وابتهجت كثيرا.

أتذكر أننا مررنا في طريقنا إلى الشاطئ الرملي برجل خمسيني منهمكا في استخراج شيء من البحر وبالقرب منه نصب قصبة صيد طويلة. طلب منا المرافق أن نأخذ قسطا من الراحة في ذلك المكان. انتبه إلينا الرجل ولم يعرنا اهتماما، وواصل عمله. كان المرافق منشغلا بأخذ الصور، فاقتربت من الرجل أكثر ولاحظت أنه يستخرج برفق أشياء بها أشواك ملتصقة بالصخور. أخذني الفضول لأعرف كنه هذه المخلوقات البحرية الغريبة. نظر إلي الرجل وقال: «احذر يا فتى! الصخور زلقة» تسمرت في مكاني على صخرة مسطحة، وسألته: «ما هذه الأشواك التي تخرجها من الماء؟» قال لي من دون أن يرفع رأسه: «ألا تعرف قنفذ البحر؟!» أجبته: «كلا... لا أعرف قنفذ البحر». كانت أشواكه تشبه أشواك القنافذ التي أعرف، وتعجبت من وجود مثيل لها يعيش في البحر. وقلت للرجل: «لماذا تصطادها وتهشمها؟» قال لي: «آكل منها وأستخدمها طعما للسمك.» وشرح لي كيف يفعل ذلك.

وصلنا إلى الشاطئ الرملي، ونزعنا أحذيتنا ورفعنا أطراف سراويلنا ورحنا نستمتع بالماء البارد على الرمل الناعم. تذكرت فجأة قنفذ البحر وأشواكه السامة

فتسمرت في مكاني بلا حراك. اعتقدت أن قنفذ البحر يعيش في الرمل أيضا. اقتربت من المرافق بحذر وهممت أن أسأله: «هل يوجد قنفذ البحر هنا؟» لكنني تداركت الأمر واستنتجت أنه يفضل الالتصاق بالصخور، وبما أنه لا صخور هنا فالنتيجة أنه غير موجود. وسمعت المرافق يصرخ على زملائي: «أنتم هناك لا تبللوا ملابسكم».

كان الشاطئ الرملي محطتنا الأخيرة في جولتنا، وقبل أوبتنا أجرينا مقابلة في كرة القدم. حاولت النأي بنفسي عن المشاركة والاكتفاء بالتفرج، لكن المرافق أجبرني على اللعب حارسا للمرمى. وعندما مالت الشمس للمغيب وامتلأت السماء بسحب منمقة بألوان الغروب الخلابة عدنا أدراجنا إلى مرقد المدرسة وقد نال منا التعب ما نال. وبعد أن اغتسلنا اصطففنا في الطابور أمام المطعم لتناول وجبة العشاء. لاحظت زملائي يفكهون وهم يسترجعون لحظات المرح. وسألت زميلا لي: «هل تعرف قنفذ البحر؟» قال لي: «بالطبع أعرفه، ألا تعرفه أنت؟!» قلت له: «عرفته اليوم فقط.» ضحك وقال: «لا تقترب منه فشوكه لا يحتمل».

أذكر أنني رجعت إلى الشاطئ الصخري عدة مرات بعد جولتنا تلك، رجعت وحدي وكنت أرى الرجل الخمسيني في المكان نفسه، وتارة في مكان مختلف، يرمي بصنارته في الماء، ويجمع قنافذ البحر. لاحظ اهتمامي بما يفعل فقال لي مرة: «هل تريد أن تتعلم صيد السمك؟» قلت له: «نعم أريد أن أتعلم صيد السمك». بعدها لا أذكر عدد الأشواك التي نلتها من قنافذ البحر. لكنني تعلمت قواعد الصيد باستخدام القصبة والصنارة.

(٦)

هبط الليل أخيرا... وانصرم نهار قائظ آخر...

موعد حلول عطلتي السنوية المنشودة ما يزال بعيدا، أتطلع إلى حلول شهر أغسطس بشغف ونفاذ صبر. ليس إلا أسبوعان ويحل هذا الشهر الطويل الذي أحبه حبا جما، وحينما تبدأ عطلتي أحس كأنما انعتقت من السجن.

في هذه الأمسية أنا في عجلة من أمري لإعداد وجبة للعشاء. فتحت ثلاجتي الصغيرة ووقع بصري على النقانق ذات اللون الزهري. إنه عشاء النقانق بالبطاطس المقلية إذن. تمنيت لو يطل علي ذلك البائس الذي علمته الكلام ومحادثة بني البشر ليشاركني ما أطبخه ونسهر سويا إلى منتصف الليل. قال لي إن عمره قصير، وإنه ينتهز كل فرصة تتاح له فيه. لست أدري أي فرصة أتيحت له هذه المرة فراح ينتهزها حثيثا! هو لا يعلم أن تعلم اللغة التي يتكلمها البشر يجعل عمره يتضاعف مرات عدة. هذا هو السر في أننا نحن البشر مخلوقات معمرة على الرغم من ضعفنا الجسدي. أتوقع أن يطل علي في أي لحظة بعد أن تصله رائحة النقانق المقلية. وربما شاركته فوق ذلك سر الخلود الذي اكتشفته للتو.

للنقانق طعم طيب، ورائحتها الشهية وهي تقلى تملأ المكان، وتنتشر خارجا لتشي بي عند الجيران. لا يهمني الأمر، كل واحد مسؤول عن أنفه. وجاري المسن الذي يقابلني بابه أحسبه شخصا نباتيا لا يأكل اللحم ومشتقاته، ناهيك عن المقليات المضرة بالصحة. حسنا، لأسرع قليلا وأتناول نقانقي قبل بدء بث المباراة المنتظرة: النهائي المنتظر في البطولة الأشهر على مستوى العالم بين فريقين أناصر منهما من يلعب أفضل، وإن كنت ميالا إلى أحدهما أكثر من الآخر. وما يهمني أكثر في هذه الفرجة أن أستمتع بذلك الصراع في حدود قواعد اللعبة من أجل تسجيل الأهداف وإحراز الفوز. وهي فرصة لكسر الروتين اليومي أيضا ومتابعة الأحداث الكبيرة في عالم يزداد ترفا وتفاهة.

وصلت إلى المقهى قبل نصف ساعة من انطلاق المباراة، حتى أظفر بمكان يسمح لي بمشاهدة المباراة المنتظرة بأريحية. ولخيبتي وجدت ساحة المقهى ممتلئة عن آخرها. كانت الساحة واسعة أمام المقهى، وكانت العادة في مثل هذه المناسبات الجماهيرية أن ينصب صاحب المقهى تلفازه الكبير خارجا. وها هي ذي شاشته الزاهية بالألوان تظهر من بعيد، وكان صوته يمتزج بضجيج المدينة فيخلق سيمفونية من الحياة والحركية غير المعتادة، حتى أن هناك من كان يشاهد المباراة كاملة من شرفة بيته في البناية المقابلة. إنها حمى الكرة تطغى على الجميع.

وقفت حاملا مشروبا باردا في مكان خلف الحشود القاعدة في الساحة ورحت أبحث عن موقع مناسب يسمح لي بمشاهدة شاشة التلفاز كاملة. سرت على الجانب حتى انتهى بي المطاف محشورا في مكان مظلم واتخذت من سور الحديقة المجاورة مقعدا، وكان السور مؤلفا من جزء سفلي من الاسمنت وجزء علوي من سياج حديدي، ومن ورائه كانت تنبعث روائح منفرة زكمت أنفي. تحملت الرائحة مضطرا فليس هناك شيء بالمجان خاصة إن كان هذا الشيء مرغوبا فيه بشدة.

شاهدت الشوط الأول وانصرفت مكرها. شوط انتهى بتفوق فريق بلاد الأجبان بهدفين نظيفين بتعبير المعلق الرياضي. لم أكن راضيا على هذه النتيجة، فقد كنت آمل فوز فريق بلاد البن والسكر لتاريخهم الحافل في هذه اللعبة، ولكن.. تجري الكرة بما لا أشتهي.

لم أعد أحتمل القعود مدة أطول بنصف أليتي على مقعد إسمنتي خشن الملمس ومائل قليلا، فضلا عن الرائحة المنبعثة من خلف الجدار، والهواء الملوث بدخان السجائر، وقررت العودة إلى البيت. ومهما تكن النتيجة فالذي سيحصل بعد انتهاء المباراة المثيرة أن ينقسم الناس إلى ثلاث فئات: فئة تنفعل فرحا، وفئة تنفعل حسرة، وفئة ثالثة لا تنفعل بشيء، فتنسحب بصمت عائدة إلى حياتها المعتادة بعد رحلة قصيرة في عالم الوهم. إنه الحال نفسه يتكرر ككل مرة.

غادرت المكان وسلكت شارعا قليل الإنارة، ومنعدم الحركة تقريبا. كان نباح الكلاب الشريدة يقطع الهدوء الكاذب. أعلم أنها تنبح من الخوف، ويقال إنها تملك القدرة على مشاهدة الأشباح، ولذا تسمعها تنبح ليلا وتنام نهارا. كان نباح الكلاب والحاجة إلى دخول المرحاض يزيدان في إرباكي فرحت أسرع الخطى أكثر.

واصلت متابعة أخبار الرياضة في تلفازي الصغير، وبعد أن أعلمني بالنتيجة النهائية أطفأته. لقد فاز الفائز وخسر الخاسر وانتهى الأمر. وغدا يوم عمل ولذلك من الأحسن أن أخلد للنوم مبكرا.

تمددت على السرير وتذكرت سور الحديقة المدبب، وما خلفه من ألم أسفل ظهري وأليتي فلعنته ولعنت من يتبولون من خلفه مثل الكلاب. أحسست بثقل برأسي وصداع خفيف، وبعض العطاس المتتالي جعلت أنفي يسيح والعينين تدمعان.. هل أصابني الرشح؟ نهضت قاصدا المغسل، لأتمخط وأنظف أنفي وأشطف فمي. وها هو القلق ينتابني من أن أصاب بالزكام في مثل هذا الوقت. يقال إن زكام الصيف مزعج جدا. أعطس مرة أخرى ويزداد الألم برأسي. نهضت مثقلا إلى المطبخ لتحضير شراب ساخن، فالوقاية خير من العلاج كما يقال. وضعت الماء يغلي، وأضفت إليه أوراقا مجففة من نبات الزعتر.

أتذكر فجأة فأر الحكايات وأتساءل: لمَ لم تجذبه رائحة النقانق المقلية التي ما زالت عالقة هنا في المطبخ؟! لا أخفي سرا أنني صرت أتوقع ظهوره كلما حل الليل. ولذا تركت له قطعة من النقانق تحت الطاولة قبل خروجي لمشاهدة المباراة بالمقهى، لكن القطعة بقيت على حالها. وكذلك الأمر مع قطعة الجبن الأحمر التي طرحتها أرضا قريبا من جحره.

أخذت رشفة من مشروب الزعتر فوجدت طعمه لا يستساغ بلا سكر. حبذا لو استبدل عسل النحل بهذا السكر الخطير على الصحة كما يقول تلفازي، وبالأخص حينما يطرق المرء باب الأربعين. أتذكر آخر مرة تناولت فيها عسلا طبيعيا كان قبل سنتين عندما أصبت بالتهاب في الحلق استمر أياما. ولقنينة العسل تلك

التي كنت أستشفي بها قصة طريفة. سأشاركها مع ذلك الخوان إذا ما قرر العودة يوما.

مر أسبوع أو أكثر ولم يظهر لفأر الحكايات أثر. هل نجح في صعود إحدى البواخر الراسية بالميناء؟ ربما، فهو فأر ذكي وطموح. ولا أستبعد أنه قرر هجراني مذ حملته من ذيله وهددته برميه في البحر. أستعيد الآن ذلك اليوم الذي أرعبته فيه وأشعر بالندم على فظاظتي معه. فهو مخلوق ضعيف في نهاية الأمر، لا هم له في حياته القصيرة إلا البحث عن لقمة في قمامة أو في مخزن للحبوب، والاحتراس من مكنسة البشر وسمومهم، ومخالب هررهم الجشعة، وأن يسعى لترك النسل الكثير حفاظا على نوعه. بماذا يمكنني أن أغريه الآن ليعود كما عرفته أول مرة؟ وأي حيلة تنفع معه إذا ما عاد لأرمم جسر الثقة الذي تصدع بيننا؟

أعد الأيام المتبقية من شهر يوليو قبل حلول عطلتي السنوية المرتقبة. لم يتبق غير أيام قليلة تفصلني عن حريتي. وفي العمل تنتظرني عشرات الكتب العتيقة لتصويرها بآلات تنتظر عصرنة من الجهات المعنية. بعض الكتب مجاميع ضخمة تستلزم وقتا وجهدا لاستكمالها. وأنا منهك ورأسي به صداع يزورني بين الحين والحين. أفكر أن أخصص يوما من أيام عطلتي الطويلة لزيارة طبيب العيون، أتوقع أنه سيطلب مني ارتداء نظارة طبية. ولكن قبل ذلك سأمنح لنفسي فرصة للراحة في الأسبوع الأول من عطلتي، وأتأكد إن كان الأمر يستدعي زيارة الطبيب أم لا. فلعله مجرد إرهاق لا غير. وحبذا لو يزول عني في يوم أو يومين على الأكثر. لا يعجبني أن أخرج من سجن الوظيفة إلى سجن البيت. وإن كان السجن الثاني أحب إلي من الأول ولا يقارن به.

في برنامجي أيضا في عطلتي أن أستبدل هذا التلفاز صغير الحجم وكثير الأعطال. لا أتصور كيف يمكن لشخص مرهق من العمل طوال اليوم يستلقي أمام التلفاز مساء ليريح أعصابه بمشاهدة فيلم مشوق، أو مباراة في كرة القدم ماتعة، أو حتى رسوم متحركة للأطفال، أو حصص كوميدية طريفة، فيفاجئه هذا

الصندوق بوجه مملوء بالنمش وصوت التشتشة الكريه رافع ضغط الدم وخافض حلم الحليم. فأي عقاب ينتظر أن ينزل به سوى الرفس والرمي من النافذة ليلهو به أطفال الحي، وينتهي به المطاف إلى حاوية القمامة هناك في طرف الشارع، ثم إلى مجمع النفايات خارج المدينة. هذا هو مآلك أيها الأحدب القديم. لقد قدمت خدماتك في وقت ما، والآن بعد أن تعبت أسلاكك ودوائرك الكهربائية ما عليك إلا الانسحاب وفسح المجال لغيرك من الأجهزة الملونة الوسيمة قليلة الأعطاب.

ليس التلفاز وحده ما يستحق التجديد. الجدران والأبواب والنوافذ أيضا بحاجة إلى طلاء جديد، فقد سئمت نفسي من رؤية هذه الألوان الباهتة وبقع الرطوبة هنا وهناك. يروق لي اللونان الرمادي والأبيض، وكذلك اللون الأخضر الفستقي. اللون الرمادي الفاتح لون يبهجني وأحس بالراحة عند النظر فيه. لكن تلفازي الكئيب يزعم أنه من الألوان الجالبة للإحساس بالكآبة.

عزمت أمري وقررت أن أخصص يومين من عطلتي لتجديد طلاء الغرفة باللون الفستقي، والمطبخ باللون الرمادي، والأبواب والنوافذ باللون الأبيض. لن أطلب من صاحبة المبنى إذنا أو أن تقتسم معي الأعباء، إذ من شروط الإيجار أن يتكفل المستأجر وحده بالصيانة الداخلية، كالطلاء وإصلاح ما لحق من أضرار بالجدران، والأرضية، وصنابير المياه، والمواسير، وأسلاك الكهرباء، والقواطع، وغيرها مما يستعمل داخل الشقة ويحتمل تعطله كليا أو جزئيا من كثرة الاستخدام. هذا هو المعمول به والمتفق عليه بين الطرفين. وما يجب علي فعله الآن أن أبحث عن دهان محترف أتفق معه على السعر وعلى موعد مسبق. أرجو أن أوفق في ذلك، وإلا ما علي إلا التشمير عن ذراعي، فكما تقول الحكمة القديمة: ما حك ظهرك مثل ظفرك.

(٧)

وتحل العطلة أخيرا... يا للبهجة والسرور!

شهر كامل من الانعتاق والتخلص من كل التزام يتصل بوظيفتي. سأحرص على ألا أحرص على شيء، وأن ألتزم بألا ألتزم بشيء يعكر صفو عطلتي. سأنام متى شئت، وأستيقظ متى رغبت. أدخل وأخرج وقتما أردت، وأجتاز هذا الطريق أم أجتاز غيره، بالحذاء أم بالصندل، لا يهم. أمر على مقهى الحي أم أزور مقاهي المدينة كلها، مجربا قهوتها جميعا، وأختار منها الأحسن. أحلق شعر رأسي وذقني عند هذا الحلاق، أم أتركه ينمو ولا أبالي بمآله. أظل قابعا في هذه المدينة، وإن شئت رحلت عنها إلى مدن أخرى، قريبة أم بعيدة، حاملا حقيبتي طالبا الراحة والاستجمام إلى حيث توصلني محفظتي الضامرة. سألتقي وجوها لم تألفها عيناي، وأتذوق أطعمة لم أتذوقها من قبل. أمتع عيني بألوان وأشكال لم يألفها بصري، وبأصوات لم تألفها أذناي. بالمختصر المفيد لن أخضع بدءا من اليوم لأي سلطة تلزمني بأن أحيا حياتي مرهونة بما تمنحه لي من لقمة أقتات عليها، وتملأ محفظتي بدنانير معدودة لا تضحك ولا تبكي.

سأترك مسألة طلاء الجدران إلى النصف الثاني من الشهر. وبدءا سأضع برنامجا مفصلا للكيفية التي سأقضي بها أيام هذه العطلة التي انتظرتها طويلا. سأخصص قسمها الأول للترميم العقلي والنفسي بأخذ قسط من الراحة والاستجمام، وقراءة بعض الكتب الجديدة. أما قسمها الثاني فأخصصه لترميم شقتي بإعادة طلاء الجدران وإصلاح ما يلزم إصلاحه، وإمكان تغيير الأثاث والأجهزة التالفة. أعتقد أنني سأصرف الكثير من الأموال المدخرة. لكن الأمر يستحق ذلك حقيقة. أحتاج فقط لقلم ودفتر لتدوين التكاليف المحتملة ومراجعة ميزانيتي.

بحثت فيما لدي من رفوف وأدراج ولم أعثر على ورقة تصلح للكتابة. تذكرت المفكرات التي كانت تهدينا إياها إدارة المكتبة في بداية كل عام جديد، وتذكرت أيضا

محفظة أوراقي التي لم أفتحها منذ زمن طويل. ها هي ذي هناك فوق الخزانة مهملة ومغبرة. إنها محفظة أعدها حافظة ذكرياتي والأمينة على أسراري، ملأتها بأرشيف حياتي من أوراق ودفاتر وسجلات قديمة، بعضها اصفر لونه وبعضها بقي على حاله: قصاصات، ومسودات، وكراسات، وشهادات.. لا زلت أحتفظ بها، وأوراق كتبتها أيام الدراسة احتوت أشعارا، وقصصا، ويوميات، وكثير من الترهات...

أنفض الغبار عن محفظتي وأبدأ بتصفيف أوراقي، ثم أشرع في تصفحها على أريكتي القرمزية. وجدت نفسي مستمتعًا بتصفح تلك الأوراق القديمة والمفكرات المنسية. كانت تعيد إلي ذكريات الأيام الجميلة والتحديات التي مررت بها في أيام الدراسة. كانت الأشعار والقصص التي كتبتها في تلك الأيام مليئة بشغف الشباب وأشجانه. وتذكرت كيف كنت أحلم بأن أصبح كاتبا يذيع صيته في الآفاق.

توقفت عند صفحات تحمل يومياتي الشخصية. لقد كنت أكتب في تلك الأيام عن أفراحي وأحزاني، وعن تحديات الحياة التي واجهتها والأشخاص الذين تعرفت إليهم. كانت صفحات تنبض بالحياة، نقلت بصدق رحلتي الشخصية ونضجي على مر السنين. وهذه أيضا بعض القصاصات والمسودات احتوت تلك الأفكار المبعثرة والنصوص الأولية لمشاريع وأحلام لم تكتمل. لم تتحقق جميعها بطبيعة الحال، ولكنها تذكرني بطموحاتي التي كانت تحركني في تلك الأيام البعيدة.

كانت جلسة ماتعة ومفعمة بعبق تاريخي الوسيط الذي ترك آثارا عميقة في روحي، استرجعته وأنا أتصفح أوراقي القديمة المنسية. وها أنا أقرر أن أستفيد من هذه الوقفة العاطفية لترميم ذهني وروحي. قررت أن أعيد توجيه طاقتي وتحفيز نفسي لتحقيق أحلامي والعمل على مشاريعي المستقبلية انطلاقا من هذه الأفكار والذكريات التي استحضرتها بمراجعة أوراقي القديمة التي أعطتني الدفعة اللازمة لبدء رحلة جديدة في حياتي. فهل سأستفيد من هذه الفرصة للتركيز على تحسين نفسي وإعادة توجيه حياتي نحو النجاح وتحقيق أهدافي المستقبلية؟

كنت حدثتكم عن قصتي الأولى التي نشرتها لي صحيفة يومية، وهذه قصاصة لمقال نقدي حولها. ما تزال القصة حية أمامي وفي كياني كأنني كتبتها بالأمس فقط. أما هذه فقصاصة لقصتي الثانية المنشورة في الصحيفة نفسها. وهذه مخطوطة قصة للأطفال لم تنشر، وقصيدة لم أنشرها أيضا، وهذه قصص قصيرة جدا، أو ومضات، أو خواطر عابرة كتبتها قبل سنوات في أيام الجامعة والتشرد العاطفي. ها أنا ذا أقرأ فيها من جديد وأستذكر حالي يوم كنت كاتبا مبتدئا وحالما، بسيطا في تفكيري، وثائرا صامتا في مشاعري التي كانت تستعر كاللهب، ثم تخمد سريعا مخلفة رمادا تذروه رياح النسيان والتغافل.

إنها كتابات أعدها جزءا من حياتي. ذلك الجزء الذي حولته إلى خيال لذت به في تلك الأيام هربا من صقيع الخيبات ومن صدمات حياتي الواقعية. فالكتابة، لمن لا يعرف، ملاذٌ من لا ملاذ له، وعالم عطوف يهرع إليه فرارا من عالم فظ لا يرحم. الكتابة لمن جرب ممارستها أرض الأحلام والخيالات والسحر والانعتاق من كل القيود، إنها الأفيون الحلال.

ها هي ذي قصتي الأولى التي كتبتها في لحظة خيبة كبيرة. كتبتها في ساعة واحدة وأحسست بعدها براحة لم أشعر بها من قبل. بركان انفجر في لحظة مخلفا الحمم والغبار والرماد.

ها أنا ذا أعيد قراءتها عليكم وأستذكر ما جرى معي من أحداث عشت مثلها قبل سنين. عنونتها «اعتذار ونهاية حلم أشقر». على أن أتبعها بالمقال النقدي الذي كتب حولها بعد نقلها بتمامها كما نشرتها أول مرة...

قلت في قصتي:

(٨)

«كنت يوما سائرا وحدي...

حانت مني التفاتة إلى جهة مظلمة فرأيت شيئا أذهلني. واصلت سيري ونسيت ما رأيت أياما. ووقفت في المرة الثانية في المكان نفسه وتقدمت. لكنني أحجمت عن ذلك ثالث مرة. قلت في نفسي: لا يهمني الأمر. ومضيت لشأني. وكان خطر على بالي في المرة الأولى أن أرجع فرجعت، لكنني تذكرت موعدا لي. وتذكرت في المرة الثانية أنني كنت في عجلة لقضاء حاجة ملحة. وقلت في المرة الرابعة: بطاقة من هذه؟ وكانت تحمل في زاويتها صورة لأنثى جميلة! ونظرت إلى الساعة وواصلت سيري. بالرغم من محاولاتي الكثيرة للاقتراب إلا أنني لم أكن ذا فضول عارم. سمعت وأنا صغير حكاية قديمة رواها لنا جدي قبل شهرين من وفاته ما فهمتها أول مرة. وكنت ألوذ بالصمت.

ويسألني جدي عندما ينهي حكايته: هل فهمت الحكاية؟ وكنت بليدا وكنت أضحوكة الجميع. ويضحك جدي ويقول لي: ستكبر وتفهم ويصبح لك شأن. وأسمعهم يضحكون علي. وما فتئ جدي أن مات وجعلت أنظر إلى الموقد الذي كان يستعمله أوقات الشتاء فتدمع عيناي.

بذاكرتي الآن حكاية واحدة من حكايا جدي. وحين وقفت أمامها في المرة الخامسة جعلت أنظر في عينيها الزرقاوين وتذكرت الحكاية. قال جدي: أجدادنا يا أولادي حذرونا من ذوي العيون الزرق والشعر الأشقر. وعلمت فيما بعد من قصد جدي.

وتابع المدرس إملاءه: التاريخ يا أولاد ذاكرة الشعوب... وحين اقتربت سفنهم من الساحل بدأت المدافع تطلق النار من القلاع والحصون. وفي الخارج كان المطر ينهمر. وينطلق فجأة هزيم رعد قوي ارتجت له القاعة كما قلوبنا. صاح الجميع وانتفض صاحبي إلى جانبي وراح يقهقه، وعلا فجأة الضحك والصخب، وتحت وقع

طرقات قلم كئيب صمتوا. نظرت إليها وألفيتها تبتسم مع زميلة لها. مرحة وابتسامتها كموقد يتوهج. قال جدي: يدك باردة اقترب وتدفأ. وأمسك بهما بين يديه العتيقتين وفيهما راح ينفخ وينفخ.

وفي المرة السادسة قلت لصاحبي: أتحفظ السر؟ نظر في ولم أتكلم. ودخلنا المقهى، وبعد مدة ألح علي أن أكشف له سبب تغير هيئتي. كان ذكيا فقال لي: هي إذن؟! قال جدي: ستكبر وتفهم ويصبح لك شأن. أحس بالأمان في غرفة جدي، وحين يغلبني النعاس أغمض عيني وأنام معه في حجرته الدافئة. بناها أيام شبابه بالطين والحجر وفي سقفها قصب عششت فيه العناكب والصراصير. لم تؤذني العناكب يوما لكنها بدت لي تحت ضوء مصباح الزيت مخيفة والخيوط تلفها. بيتها من حرير وبيت جدي من حجر وسقفه من قرميد وقصب. وفكرت في الموقد المتوهج وحولنا سكون الليل. كنت أحب جدي حين يبدأ سرد حكاية ما. قال لي مرة: ابنة عمك تريد اللعب معك خذ بيدها. ضحك الجميع وطأطأت هي رأسها. وقال أبي: هما كبيران الآن أي لعب لهما!

وصمت صاحبي دهرا ثم قال: كم هي جميلة! قل لي ما اسمها. شعرت برغبة في الصراخ وقلت له: أنت تهذي. قال: لعلها محجوزة... رأيتهما معا يتجولان. أصابني في الصميم وقلت له: مؤكد أنك تهذي... قل إني أكذب.

ويصيح الأستاذ بالسكوت ويتابع إملاءه. وانتهى الدرس ونظرت إليها. وفي الرواق قالت لي: أعرني دفترك لأنقل منه دروس الغياب. ومن حولنا النظرات والهمسات. وإلى جانبي صاحبي يرتعش من البرد. لم أهتم لأسناني التي تصطك من الفجأة. وبدا لي وجهها كقطعة جليد منحوتة ككريستال بديع وعيناها تبرقان بالرغبة. وجذبني صاحبي من ساعدي: هيا أسرع. وانطلقت هي في معطفها لبيتهم القريب حولها النظرات وفوقها مطرية بألوان قوس قزح.

وركبنا الحافلة إلى الحي حيث نقيم وعلى الزجاج ضباب خفيف. صاحبي منزعج من شيء في مقعده وأنا أرسم على الضباب تعاستي... قال المعلم: أنت

مطلوب. ووجدت أبي ينتظرني. على معطفه الأسود آثار البلل وعلى وجهه حزن دفين. قال لي في الطريق: جدك مريض ويريد رؤيتك. وكان المطر ينهمر.

مات جدي في فصل حزين وقبله ماتت زهرة في فصل الفرح. لم أبك في حضرة جدي. رأيته مستلقيا على فراشه الوطيء فاغرا فاه إلى السماء، حوله الصمت الرهيب. وتمتم جدي ثم همد. وانطلقت إلى مكاني الأثير وبكيت وحدي.

ويصرخ صاحبي: أكاد أنفجر، اللعنة على هذا السائق كأنه سلحفاة حامل! وأنظر إليه وأبتسم وأدير وجهي. كان العرق يتصبب من جبينها وخدها كحبات اللؤلؤ. ابتسمت وقالت: الحر في بلدتكم لا يطاق. وبيدها منديل وعلى رأسها قبعة صيف. ألا تحتملين الحر يا برد فؤادي المعنى وبنار تجاهلك له تعذبينه! ومن حولنا النظرات والهمسات والغمزات. خال هنا وآخر هناك كجزر في بحر أشقر، وأنا ملاح تائه بقارب بلا شراع تملأ قلبه الرغبة في اكتشاف المجهول. وأرفع رأسي وأراها تبتسم في استحياء. آه... عفوا. وأشعر بالخجل من وقاحتي. يا صاحبة الخال اعذريني فهو كجبل مغناطيس يجذب مسامير القوارب التعيسة ليغرقها في بحرك. وكانت تلوي وأنفها في السماء. بقميصها الوردي الشفاف، وتنورة تعبث بها النسمات، وشعر كالحرير تحت وهج شمس تحرق. وعلقت بذهني صورة خال يشبه جزيرة بلاد أعرفها. وذلك الانتفاخ كفاكهة خط الاستواء. يا دميتي الصغيرة من أي البلاد أنت؟ وأي سفينة أقلت بذرتك ورمت بها الأمواج على شاطئي؟

الظمأ ...الظمأ. وزهرة تجري خلفي وتصيح. وينتهي بنا المطاف حيث ينتصب القصب، وأصنع لها دمية من قصب، وألبستها هي حلة من قماش رديء. وصنعت لها مهدا من قصب، وصارت ترقصها وتدندن لها. وأختفي بين القصب وأسمعها تصيح. وأخرج من بين القصب فتفزع وتنطلق وهي تضحك وتضربني بالقصب. وسقف حجرة جدي من قصب. وحولنا القصب في الوادي والشعب. وفوق شجرة الزيتون العتيقة بنيت بيتا من قصب. ولما استوطن جدي قريتنا أول مرة بنى كوخا من قصب. جاء من بلاد بعيدة لا أذكر اسمها الآن. حكى لنا حكايته مرات عديدة.

قال جدي: قتلوا ونهبوا وحرقوا البيوت والزروع وهرب من استطاع الهرب، وكنت أنا ممن هرب. همت على وجهي أياما طويلة وبت ليالي في الشعب وأكلت الحشيش وثمر الشجر وكاد الروع يقتلني. ولما اشتد ساعدي بنيت كوخا ثم صارت لي عائلة وبكيت مرتين. ثم بنيت بيتا من حجر وحوله غرست أشجار التين والزيتون...

وأسمع زهرة تصيح أن أصعدني معك. وأقول لها: الشجرة عالية والمكان ضيق. وتأبى وتصيح وأراها تنشب بأظفارها في جذع الشجرة. وأصنع لها بعد لأي سلما من خشب. وحينما يحين وقت قطف الزيتون يهدمون قلعتي وألقط الزيتون بحنق. ونصل غرفتنا في الحي ويصيح صاحبي: البرد... الجوع... أين أنت يا أمي؟ ويرد علي جدي: ليست هنا، تعال يا ولد... ويسمعها تصيح علي ويغضب ويقرعني بعصاه على رأسي: لا تغضب أمك يا ولد... هي على من تتعب وتشقى؟! وما عدت أغضب أمي وما عاد جدي يقرعني بعصاه. ونقعد مساء حول موقده المتوهج ويحكي لنا حكاياته التي لا تنتهي.

وابتهج صاحبي وصاح: أف... نكاد نصل. وكان متكورا في معطفه البالي. وكان الطابور مخيفا في بدايته. وكان صاحبي لا يفتأ صائحا: البرد... الجوع... الضجر. وأنظر إليه وأبتسم ويحكي لي حكاياته مع اللواتي شغلنه عن قضاء حاجته فظل يتلوى في مقعده بالحافلة. وتلك الوجوه البائسة ما إن تظفر بوجبتها الساخنة حتى تنطلق أساريرها بالفرح ويكثر اللغط. وطلبت كوب شاي وطلب صاحبي قهوة وراح يدخن بنهم، وحولنا الأضواء والصخب، وفي الخارج برد يقضم الأنوف والآذان وأطراف الأصابع، وفي السماء سحب مرتحلة تشيعها النجوم.

ويصيح صاحبي: البرد... البرد... ليتهم يشغلون المدفآت فقط. وذكرت قبل نومي وجه الكريستال البديع وذلك البريق وبعضا من دموع الضحك. وذلك المعطف البديع ما أنعمه! وقلت لها: أعطيك دروس اليوم والباقي غدا. وشكرتني بلطف كبير وكادت خفقات قلبي تفضحني كما العيون. وردت بابتسام: بل هو خط واضح وجميل. بل خطك أروع ما رأيت! كدت أصيح وأفضح نفسي بين المتربصين بتعاستي.

يا عاشقة الخط الجميل أعيدي على مسامعي ما قلت. أين مسجلتك يا صاحبي. أين من يوقف الزمن! يا زمن توقف... ويا شمس ارجعي! وكان البرد يلفني ولم أعد أعي وصرت غريق عرقي. لأجلك يا عاشقة خطي أشتري أغلى الأقلام وأبهى الورق. وخيم الصمت فجأة في معبد بوذي فقير يصلي وحوله التماثيل الخرقاء تلمع بالقلائد والحلي. وتسلل إلى أذني فجأة صوت بارد: هنيئا لك يا صاح. ونظرت إليه ولم أتكلم. وابتسم صاحبي وابتسمت.

ونظرت إلى السبورة تملؤها خربشات كرسوم من عهد غابر. خطها رديء يا صاحبي... أنا لا يهمني الخط. وأملى علينا المدرس قصيدة ولم تطلبها مني. وهناك في الجبال البعيدة المكسوة بالثلج يصيح الصمت من الضجر. وهناك تقبر الأحلام. وشوقي إلى أمي لا أحس به إلا الآن. هناك حيث الوحل ورائحة الدخان والسابت في جحره يستعجل قدوم الربيع. كئيب أنا وشوقي إلى حساء ساخن يزداد. ويصيح علي المدرس: اكتب! فيم أنت سرحان؟ ويضحكون علي ولا يهمها هي أمر من خاطب. لم أخجل ولم أهتم. لن أكتب بعد اليوم شيئا ولن أعير دفاتري لأحد. جائع إليك يا ملهمتي الجمال وعاشقة قلمي. لمن أكتب بعد اليوم قصائدي ولمن أنمق خطي الحزين؟ قالت لي: لعلي أكثرت عليك وأنك ضجرت مني. كاد يغشى على قلبي... أعليك ومنك يا معبد الأغبياء مثلي!! لمثلك تُوقد الشموع على أطراف الأصابع، ويُكتب بماء الذهب على الورق الصقيل، ولأجلك ينحني الظهر ولا يتألم. ومن دفاتري المعادة إلي أتحسس عطرا أو بصمة، أو ربما... أثر دمعة وهيام مكبوت. مراسيل الشوق إليك أحسبها. خذي دفاتري وكتبي كلها وخلفي عليها من آثارك. أتحسسها ورقة ورقة، وسطرا سطرا، ونقطة نقطة. وليتك حين تقلبين الأوراق كنت تلعقين أطراف أناملك فأقلب أنا الأوراق بأصابعي ولا أقرأ. وتحتضنين الكتاب وتنامين أو تلقينه بجانبك واسمي المكتوب عليه ينوب عن جسدي. حدثني يا كتابي ويا دفتري عما رأيت وماذا أسمعتك؟ خبرني عن أحلامها ماذا رأت وأي الأسماء رددت؟ وأبحث

كالمحقق بين الأوراق عن نقطة أو زلة قلم، أفحص الكتاب طولا وعرضا بلا كلل أو ملل. وأنام وصاحبي في شخيره، والمدفآت عششت فيها العناكب والصدأ.

صباحا، على صوت زقزقة العصافير وقرع النعال على السلالم أفيق. أوقظ صاحبي وبرأسي صداع، وبصدري حشرجة، وجسدي محموم. أأنت مريض؟ وأجيب صاحبي: لعلها نزلة برد. وفي المساء ساءت أحوالي وقال لي الطبيب: أنت مرهق... ابق في غرفتك يومين أو ثلاثة ريثما تستريح. يومان أو ثلاثة من الشوق إليك يا هلاكي كيف تراها تمضي؟ وفي سقف الغرفة ترتسم ملامح وجهك البراق: هذه أنفك، وتلك عيناك، وتلك هناك خدودك الوردية. من تراه يجرؤ على قطفها وحولها الأشواك والصقيع. والوقت يمضي وأنت في جمودك. قال لي: تقدم... مالك تقف كالعمود؟ أجبته بتنهيدة لم يحس بها: مالي يا صاحبي والتقدم إلى معركة بلا سلاح وتشجيعك لي لا يفيدني. أنا بارد وأحتاج إلى غطاء وثير والحمى خفت وطأتها الآن والجوع ينهش أمعائي. أنوء بحمل ثقيل والوحدة تقتلني، وغرفتنا في وحدتي كسجن صغير. الهدوء والوحشة والدفء الغريب. أنهض للطابور وفي يدي قصة معتوه كتبها لأمثالي، أزجي بها الوقت الرتيب.

وجاء الربيع ثقيل الخطى يحمل الحياة، بطيئا بطيئا تتفتح البراعم والأزهار، وشيئا فشيئا يذوب الثلج في الجبال. وها أنا أودعك يا أمي وأنزل مع الماء الرقراق إلى حيث الضجيج، والصخب، والضباب، والألم... طرق ملتوية تعانق السحاب تهبط إلى هناك ومعي حقيبة بها خبز وزيت وكثير من الأشواق. ثلث عام بقي أمامك ثم الفراق. وقال صاحبي: قررت أن أتقدم ولا أبالي... هذا آخر عام. الويل لي إن لم أتقدم. ثم راح يدندن بأغنيته الوحيدة التي يحفظ وفي عينيه تطفر الدموع. ولما رأيت دموعه قررت كذلك أن أتقدم مثله وأندثر أمامها قبل خطوة... لا، بل قبل شبر واحد.

وحملنا الرصيف إلى قلب المدينة في أمسية باردة، وقال صاحبي: أنت دائما في صمتك. وأضاف: الشقراء وما فعلت بك. نظرت إليه ولم أتكلم. وأضاف: لولا أنني

محجوز. قلت له: أنت أكذوبة. وأدرت وجهي. بدت لي الطريق بالرغم من الأضواء في ظلام دامس ولفحات البرد كانت تخترق معطفي وتلسعني في مكان واحد. ما أبردك أيتها المدينة! في أي حي من أحيائك يسكن حلمي الآسر! يا خيالا يطوف حولي يأمرني باتباعه، يقترب... يبتعد، أتعثر وراءه في خطواتي. يضحك... يبتسم... ويطبق جفونه. وأفيق على صوت كلب ينبح ومواء قط هزيل. وإلى جانبي صاحبي شاردا مثلي أو لعل البرد ألجم لسانه.

أتساءل وحدي: في أي حي من هذه تسكنين؟ كيف تراها غرفتك؟ وستائر غرفتك؟ وفي أي الأوقات تنامين؟ وبأي الأغطية تتدثرين؟ وماذا تقرئين قبل وسنك الأخير؟ ولمن تكتبين أشعارك؟ وبأي الأغاني تراك تدندنين؟ أتساءل. وقرأت اسم المقهى على اللافتة بجانبها لوحة رسمت عليها مثلجات الأيس كريم. هذا الاسم هنا يشبه اسمها. إلى هذا المكان النائي تتبعني تلك الهواجس التي أعقبت أول لقاء. سألتها يومها: أيمكن أن نتعارف؟ وأجابت: لم لا! فأنا متفتحة. نعم كالوردة المتفتحة تمثلتها يومها. أين هي الأشواك التي حذرني منها صاحبي؟ وابتسامتها أخذت بلباب عقلي!

وراسلتها في كل الأعياد، وفي عيد ميلادها أرسلت لها هدية وبت ليلتها على الطوى. ومضت أيام ولا رد على رسائلي. قالت لي: الهدية جميلة وخطك أجمل، وانصرفت بعدما شكرتني، وهممت أن أعترض: أريد الرد مكتوبا... أنا لا يهمني الخط. وقال جدي: يدك باردة اقترب وتدفأ... ولم أفهم. لكنني فهمت الآن. يدها مثل موقد جدي تتوهج، ويدي باردة مثل قطعة جليد.

النفس هي التي تخط يا صاحبي وليس القلم في اليد. أنا لا يهمني الخط. وفرغنا من شرب القهوة وقال صاحبي: إلام تبقى هنا؟ هيا بنا! وأضاف: لا تغضب مني. وقلت له: لا تمزح معي في هذا الأمر. وابتسم وقال: الطريق هنا مظلمة... مثل طريقك. ورفع رأسه إلى السماء ورفعت رأسي فإذا القمر بدرا من خلف سحاب شفيف. المنظر

كان رائعا. وفكرت مع نفسي: هذه المدينة لا تنام. وبدا الطريق طويلا وكنت مستعجلا. أريد أن أحلم بلقاء جديد. وصاحبنا الصمت إلى الحي.

الأيام تمضي بسرعة وأقبلت نهاية الموسم. قال صاحبي في طريقنا إلى المحطة: كأنني راجع إلى السجن... لا تنس أن تراسلني. وقلت في نفسي: بل السجن بداخلك يا صاحبي. أنا أيضا سجين وملاكي شيطان جميل يلعب مع الجميع لعبة قذرة. قال جدي: ابنة عمك تريد اللعب معك خذ بيدها. وسمعتها تصيح بالألم وهمت على وجهي إلى مكان لا أعرفه وبكيت، وبكيت. وعدت رفقة أبي. بحث عني ساعات ووجدني أبكي. قال أبي: ذاك أجلها. ونسيتها فيما بعد. عيناها ليستا زرقاوين وشعرها فاحم كشعري. قال جدي: عيناها تشبهان عينيك لكنهما أجمل بكثير! وبدت لي في وهج الموقد كلّ شيء. وضحك الجميع وهمهم جدي: ستكون لك! وضحك الجميع وطأطأت هي رأسها، ولم أفهم.

الموقف لم يعد يحتمل تأجيل اتخاذ القرار الحاسم. خطوة ثم خطوة ثم... اندثار. وقال صاحبي: أنت تهتم بها لكني كذبت عليك حتى تعترف. قلت له: أنت لم تكذب... أنت لا تدري. وقال: أنت جامد في مكانك. لو تقدمت منذ البداية... كما فعلت أنا. وشعرت بسخرية الموقف. أنت تقدمت إلى حتفك وأنا إن فعلت ذلك أصبح أكذوبة مثلك. خيوط العنكبوت يا صاحبي أصبحت قريبة وأنا حشرة تسبح في العمى. قالت لي: سأنصرف إلى البيت وصدقتها... واختفت. وركبت الحافلة وانطلقت إلى عالمي. سجني بداخلي يزداد اتساعا. الحارس نام والراحة أحس بها الآن. أضع رأسي على الزجاج وأنظر من خلفه إلى الخارج وأفكر.

هنالك في ذلك المكان بين الورود والأفنان كان الموعد. أنا الأكذوبة وهو الغريم. ورأيتها تمازحه وتعانقه. الحشرة وقعت في الشرك. من أين الخلاص؟ وتناهى إلي صوته الرخيم: سيارتي هناك. وأنا المعروف في المحطات كلها وفي جيبي حقيقتي. وهوت من سحائبها قصور الورق. وهبت من مكمنها رياح الحزن فعصفت برماد قلبي. وإلى جانبي مراهق يقرأ قصص الغرام في صحيفة. يا لهف نفسي عليك يا

صاحبي أين صرت الآن؟ كلانا اتبع السراب وكلانا وقع في الشرَك. وقال أبي: ذاك أجلها. وبكيت وحدي ومع الحجر وتحت الشجرة التي كنا نلعب تحتها. وكانت تصيح: ادفعني أكثر... أكثر. وكنت ألوذ بالصمت وأقول لصاحبي: إنها نوبة صمت! ويبتسم ويهمس قريبا من أذني وعينه إلى حيث تقعد: أيها المغرم! ويظن أنه إن قالها بصوت عال سيفضحني وأنا صرت أحدوثة الجميع. إنها فتنت الجميع وشد إليها ذوو الطمع الرحال. شواطئ الهلاك هي وأنا الضحية ولا ضحية غيري. أنا الأكذوبة حين اقتربت من حتفي...

واستيقظت وتلك اللحظة توهجت أمام عيني. ونزل المراهق في محطته كئيب الخطى وإلى جانبي قعدت مرحة من المرحات. ودغدغت أنفي رائحة عطر أعرفها وصاحت بابتهاج: مصادفة جميلة! وكانت هي بلحمها الأشقر. كريستال خبا بريقه. قلت في نفسي: بل أنت قدري المحتوم. وتحادثنا مسافة الطريق في أشياء بطعم الماء. وتركتها حيث الواجهات تبرق بالإغراء تبحث ربما عن هدية... عيد الميلاد. وواصلت سيري إلى تعاستي تخنقني العبرات. وفكرت مع نفسي: ماذا تريد؟ وماذا أريد؟ وابنة عمي نسيتها. وحين وقفت أمام جدي قال لي: لا تبك علي. وكان جدي يقول: لماذا أخطأني أنا وأصابها هي... ويضرب الأرض بطرف عصاه ويستغفر. وأسمعه ينوح حين يذكر اسمها الذي يذكره باسم أمه البعيدة. كان يحبها حبا جما وكان يضربنا لأجلها بعصاه، وكانت هي تضحك حين تلوذ بحصنها المنيع. ويقول أبي: ذاك أجلها. وتقول أمي: صغيرة كالملاك! ويهجرنا عمي غضبان. وأنظر إلى الأرجوحة تحت الشجرة. لا لعب بعد اليوم. وأسمعها تصيح. وخصلات شعرها الفاحم تعبث بها الريح. ويحين دوري فتأبى النزول... وأحضرت سكينا ورميت بالحبل في النار، ولم أبك حتى مات جدي. بكيت طويلا ولما تذكرت كفكفت دموعي وأحسست بقلبي سينفجر. قال جدي: لا تبك علي...

اجتمع الغريمان في مكان واحد. لن أطلب ثأري من الغريم... وإن لقيته مصادفة فماذا يسعني أن أفعل؟ أطأطئ رأسي وأمضي. أنا الذي في قلبه حقيقته.

أنا لا يهمني. المقهى الذي يحمل اسمها أعرفه. والطريق المظلمة أسير فيها بلا حذاء. وفي ظلمة الليل أو في حمرة النهار أقصد المكان وحدي وأقرأ اسم المقهى بصوت عال. اسم المقهى سراب، ومثلجات الآيس كريم في ليلة باردة سراب. لكن بدخيلتي موقد متوهج، ولابد لي من قطعة كبيرة من الجليد لأطفئ بها لهي. وأحمل نفسي إلى حيث لا أدري. ويصيح علي النادل: لم تدفع الثمن... وأقول له اعذرني... نسيت. ويهز رأسه وأحس بالحرج. في هذا المكان أصير أكذوبة واضحة. وتحت هذا الاسم اجتمع قدري وقدرها.»

(٩)

يا لها من ذكريات تعيسة! لكنني أجدها ماتعة الآن.

كنت شابا غضا وحالما، وكانت الكتابة القصصية تستهويني. وقبل أن أجرب حظي في هذا المجال الصعب، كنت أقرأ كثيرا. قرأت روايات كثيرة، ومجموعات قصصية لكتاب بارعين. حاولت تقليد بعضهم، ممن تأثرت بأسلوبه في الكتابة. وكنت أحلم بأن أصير مثلهم. وكان قبول نشر القصة في الصحيفة اليومية تلك حافزا مهما لي. ومرة شاركت في مسابقة أدبية وطنية ونلت جائزة مالية فحفزني ذلك أكثر.

لم تكن الصحيفة متخصصة في النشر الأدبي، ولكنها كانت تخصص صفحتين أو ثلاث لنشر ما يصل إليها من نصوص مختلفة في الشعر والقصة والخواطر لشباب في أول الطريق، ولمغمورين لم تتح لهم فرصة النشر المكلف. وكانت النصوص المنشورة تتبع أحيانا بمتابعات نقدية لنقاد معروفين، وكنت أنا واحدا ممن حظي نصه القصصي بإحدى هذه المتابعات.

ما زلت أحتفظ بقصاصة المتابعة النقدية تلك، كانت واحدة ووحيدة، عددتها لردح من الزمن مرجعا ودليلا على أن ما كتبته كان خارقا لقدراتي آنذاك،

لم ولن أكتب مثله لا قبلا ولا بعدا. لم أكن أدري أني ورطت نفسي في أمر عظيم أثقلت بي كاهلي الغض مع أول خطوة لي.

كتب الناقد الحصيف في متابعته لقصتي بعد أسبوع من نشرها مقالة نقدية ما زلت أحتفظ بقصاصتها، وعنونها «مقاربة في اعتذار ونهاية حلم أشقر... قصة بأسلوب روائي» قال فيها:

«القاص يملك قدرة مذهلة في القص. لكن تقنية السرد المطلق غلبت كفة الميزان وأقحمت بناء الأحداث مما ترك القارئ يقع فريسة للتشويش بالدرجة الأولى ويطلق العنان لمكبوت تقاسمته عدة أطراف فاعلة في الواقع؟! كانت في نية القاص الجديد على عالم النشر الصحفي حسب ظننا... حيث اعترف شخصيا بأنني لأول مرة أقرأ له عملا منشورا... أنه أراد الغوص في عالم القص الحديث بكل طرائقه أي ذاكم البعيد عن الأنماط الكلاسيكية، لذلك أعجبتني القصة هذه وتحسست الدوافع والغايات التي أرادها الكاتب كمعالم رسم بها عالمه الفني الكتابي. وقد سجلت الكثير من الانطباعات التي لم توشك على الانتهاء بحيث أخذت القصة نصف صفحة كاملة... واعتمدت في بنائيتها على طريقة جميلة لكنها غير متناسقة ولا متناغمة، بحيث نمشي مع القاص في كل تخميناته حتى يتضح في الأخير أنها نزوات عابرة لبطل تردد في حبه لابنة عمه وبين نصائح جده الذي ظل يقهر سلطة القول ويخذله لمرجع عرفاني وليس بيانيا وبرهانيا. حيث ينطلق القاص انعزاليا وسينمائيا يبصر طريقا فيمشي ثم سرعان ما يقطع هذا المشهد بكلمة تذكرت ومن هنا يبدأ صراع الذاكرة المرة... أين يدخل هاجس الجد وابنة العم... وصديق المقهى... وامرأة أخرى أشير لها بأنها ذات عينين زرقاوين وشعر أصفر وندالية، وهي إشارة إلى جدلية الذات والآخر الأصيل والدخيل... أما الشيء الذي أفرز التشويش الكتابي فهو الخطاب المشتت والمشرذم، أي ذاك الذي اعتمده القاص على حساب جنونه، والذي لا يصل بالضرورة إلى خاطر القارئ؟! بماذا نشعر مثلا حينما يقول القاص قلت لصديقي أتحفظ السر؟ ونظر إلي وسكت ولم أتكلم. ودخلنا المقهى

وبعد مدة ألح علي أن أكشف له سبب تغير هيئتي، كان ذكيا فقال لي: الشيء الذي أذهلك أكذوبة. أنت تحلم... قال جدي: ستكبر ويكون لك شأن. هنا نلاحظ ذاكم القفز الارتجالي في الخطاب القصصي الأدبي والذي نسجت به القصة في أكثر من موقع وزاوية، حيث يصبح الجد كاهنا والصديق ربما قارئ كف أو فنجان؟! وتتكرر هذه التقنية في جسد القصة دون ضرورة ملحة إلا لشيء سوى لتبيين أن القاص أو البطل بالأحرى يعيش تناقضا حادا في حياته، وهذا ليس عيبا قدر ما يبعد الكثير من متعة القص حينما يجبرنا العمل مثلا إلى التوقف وإعادة القراءة من البداية. أي إن الأسلوب غير ثابت فهو متنصل ومتعمد القفز الحر دون غايات ولا مقدمات. وكأن بالكاتب متأثر بالكتابة الشعرية... هذا تقريبا بالنسبة للإطار العام للقصة، أما القصة كحدث وفكرة، بل كلغة كذلك فصاحبنا كما قلنا يمتلك ناصية الكتابة القصصية الجديرة بالاهتمام لا لكونه استعمل الذات على حساب الواقع إنما لكونه تحكم في ذاته وترك العنان للذاكرة المتخيلة. ومن جهة فهو لم يوظف ألفاظا تعجيزية، فقد كتب بأسلوب أدبي سهل لكنه ممتنعا عن الطرح، بل عن الفهم، والذي كان العيب الوحيد بالإضافة إلى التقنية أو البنائية وعدم ترتيب الأفكار والخطاب الذي يخضع بدوره إلى تقنية فنية مركزة تسترعي الانضباط والتحكم في بانوراما القص. حيث تستطيع قراءة القص من أي مقطع وهذا أخطر العيوب؟! أما في الجسم الأخير من القصة أين اجتمع الغريمان في مكان واحد وفي مقهى الآيس كريم، وهنا مثلا لا نصل إلى هذا الفهم إلا بعد تسعة أسطر حيث أن هناك تماطلا وليس حشوا لغويا يجعل القارئ غير مستعد للتواصل بعد طول انتظار... بل يصاب ببرودة خاصة مع الذي تعود القص القصير المختزل وهذا لعمري من مميزات القص الحديث، هل كان على القاص أن يختزل أكثر ويقطع ويقص بعض الزوائد دون الإساءة لأي حدث أو فكرة؟! فإجابة السؤال نسمعها من الكاتب نفسه...»

أذكر أنني قرأت المتابعة النقدية بلهفة كبيرة واهتمام بالغ، قرأتها عدة مرات، ورحت أحملق في العنوان المكتوب بالخط العريض، غير مصدق وغير مكذب. لم أركز على سلبياتي التي كشف عنها الناقد بقدر اهتمامي بما أحسست به من اعتداد بنفسي وأنا أقرأ عبارات الإطراء والإشادة مما لم أعتده من قبل، فأشعرتني هذه الأحكام التي أطلقها الناقد بالزهو وبأنني شخص مهم، وداهمتني فكرة أن كاتبا كبيرا قد ولد للتو، وأنه سيحظى بالشهرة آجلا أم عاجلا.

وفي غمرة حماسي رحت أكرر التجربة مرة أخرى، ومن وحي خيالي كتبت قصة أخرى أصغر حجما، كأنما أردتها أن تكون الأخت الصغرى لقصتي الطويلة تلك، واستفدت من أخطائي فلم أقفز كثيرا ولم أكتب بأسلوب متنصل ومشرذم. عنونتها «زهرة والعصفور الأخضر» وتأسفت أنها لم تحظ بمتابعة نقدية، لكنني أحببتها أكثر.

كنت مهووسا في كتاباتي وفي حياتي بالأشياء الصغيرة، وبالرغبة في التعبير عن الكثير بالكلام القليل. كان جمال اللحظات الضئيلة يأسرني، فأغوص في عمق الأشياء البسيطة باحثا عن جوهر الجمال وحقيقة المعاناة. تهمني التفاصيل الدقيقة والألوان الزاهية كما تبدو في لوحة فنية متقنة. كانت لدي رغبة شديدة في التعبير عن غنى العواطف والأفكار بكلمات فلاشية موحية. ولذا صار ديدني أن أسعى لاكتشاف قوة الصمت الذي يحمل معه عوالم من المعاني العميقة، فأجد فيه الإيحاءات الجميلة التي تختزن الكثير من الأوصاف والمشاعر.

أمامي قصاصة قصتي الثانية المنشورة، تحوي بعض الأخطاء الطباعية، لكن لا بأس، سأقرأها عليكم الآن عسى أن تمنحكم قليلا من المتعة والإلهام:

«أنا الأكذوبة الذي حملته رجلاه إلى الهلاك، نفسها الأرجل التي تحملني اللحظة إلى قريتي. وأمر على قبرها الصغير بجنب حصنها المنيع ألقي عليهما السلام. قالت أمي: ماتت صغيرة كالملاك! وأحس بقلبي رماد. وواصلت سيري... هذا هو بيتنا هناك، وتلك الشجرة العتيقة بجنبه أعرفها. وتناهى إلي صياحها من بعيد: ادفعني

أكثر... أكثر. وأخذ صياحها يقترب... يقترب. ورحت أحلم بالعودة... كالطفل رحت أحلم. وتساءلت مع نفسي: بماذا يحلم الأطفال؟ وهذا البيت العتيق فوق الربوة بيتنا. وتلك الشجرة الكبيرة سميتها قلعتي. كانت فيما مضى قلعتي وكانت زهرة أميرة. كنا نقعد نرقب غروب الشمس كل مساء هناك في الأفق البعيد بين الجبال... وكنت أحلم. وعلى هذه الشجرة قعدت زهرة إلى جانبي وتلاعبنا... ورأيتها تهوي من على الشجرة. جريت أنا وتركتها. صرخت مرة واحدة وانطفأت ثم قالوا لي: أنت السبب... مملكتي انهارت وصارت الشجرة مقبرة. شجرة النحس هي. أنا لم أكن أقصد ولم أكن أعرف معنى الموت. وعاتبت نفسي كثيرا وصاروا يكرهون طفل النحس. الكل يتحاشاني... الكل ينبذني... ما جدوى البقاء وفي تلك النظرات غربتي. زهرة كانت طفلة عنيدة. وكنت أتفرج على والدتها حين تشير عليها بعدم صعود الشجرة. وكنت أطأطئ رأسي لما تخاطبني آمرة: لا تصعدا الشجرة. من فوق الشجرة كان منظر الغروب جميلا. وكانت زهرة تحلم وفي عينيها لوحة ذاك الغروب وأنا إلى جانبها في وجل. ثم لما أمسكتها كي نعود تأبى وتنتفض فأزداد خوفا على خوفي وعصا أبي لا ترحم. وتتكور زهرة في مكانها كالحلزون. وسرَت بين جنبيها نسمة باردة فقامت. وكنت أخشى وقوفها الطويل وصمتها الطويل. وبيدها أشارت: هيا بنا نرجع. وأردفت: لا تزعجني مرة أخرى. وتبتسم. وكانت تصيح وتجري بمرح ثم تستكين وتحزن. على ماذا أنت حزينة؟ ولم تكن تجيب. وكان الغروب يرتسم في عينيها كلوحة جميلة وفي وجنتيها لون الشفق الداكن. وكانت ربما تحلم مثلي... لا... بل مثل عصفورها الأخضر. أحضره أبوها من المدينة، ومضى أسبوع وصار يغرد. وكانت هي حزينة. العصفور يغرد وكانت هي تفكر. تنظر إليه وتفكر. وربما كانت تحلم بأن تغني أو... تطير. لكنها كانت حزينة. وخاتلت يوما أمها وحملت القفص معي ووجدتها فوق الشجرة وحيدة. في السماء سحابة داكنة في جهة المغيب. تنظر إليها زهرة وتفكر: هل حان وقت الغروب؟ وغرد العصفور فجأة وظننتها تنتبه، وسخرت منها لما انتفضت حين لمستها. وبدت لي حزينة وعلى وجهها كآبة وقد حوتها سكينة. ورأت

القفص معي وراحت تفكر. وكانت مكورة في مكانها كالحلزون، ومدت يدها إلى القفص ولم أفطن لها. أمنت مقعدي بجانبها، وذلك الشعاع المنفلت من بين السحاب أخذ بلبي. وانطلق فجأة أمام عيني كالوهج طيف أخضر. ونظرت إلى القفص بين رجليها ونظرت إليها، وسمعتها تصيح بصوت واضح: طِرْ... طِرْ! وفي فورة خوفي وهلعي... وربما كانت تريد أيضا أن تطير... وربما كنت أنا السبب... صرخت زهرة مرة واحدة واختفت تحت الشجرة. وكان تغريد العصفور يصلني من بعيد في خفوت ثم راح ينطفئ... ينطفئ. وصرت، أنا، بعد هول الفاجعة... الأبكم.»

(١٠)

نسيت أمر المفكرة، وانشغلت بأوراقي القديمة، أتصفحها وأغرق في ذكريات عصري الوسيط...

كنت في الثالثة والعشرين من عمري حين غادرت الجامعة بشهادة في الآداب والفنون، ثم حصلت على شهادة أخرى في التصوير الفوتوغرافي، وبعد عودتي من العسكرية مكثت في قريتي الجبلية شبه المهجورة بلا عمل ولا أمل. فكرت في حالي وفي مستقبلي المجهول، وقررت في لحظة غضب أمام والدي أن أهجر القرية بلا رجعة. لم تكن لدي أم تدافع عني أو تستبقيني إلى جانبها. كنت طفلا بين الثانية والثالثة من عمري حين فقدتها. لا أذكر شيئا مما وقع، ولكن أتوقع أنني بكيت كثيرا بحثا عن الأم التي ألفت وجودها أمامي، وربما أوهموني أنها غادرت لتحضر لي أخا وستعود قريبا. لا أذكر كم يوما بكيت فيه، وماذا كان يمور به رأسي الصغير. ما أذكره بصورة باهتة وأنا أنمو مثل شجيرة التين في حقلنا أن وجدت امرأة أخرى حلت محلها بعدما طال غياب أمي الحقيقية، وربما أقنعوني بأنها أمي الجديدة، وأنها ستطعمني وترعاني مثل أمي الأولى تماما. وعندما كبرت أكثر واشتد عودي علمت من مصادر في العائلة الكبيرة أن أبي، وبعد مرور أربعين ليلة من وفاة أمي، أعاد الزواج من أجلي.

أذكر أن أبي كان يؤثر إخوتي من زوجته الثانية علي، لكن لم يكن ذلك ليثبط من عزيمتي وإصراري على إثبات وجودي. وفي طريقي إلى هدفي كثيرا ما كان يقيض لي مدبر الأقدار من يأخذ بيدي. وحين هاجرت إلى المدينة بلا رجعة ظل أخي الأكبر من أبي يراسلني بين الفينة والأخرى، وعندما أخبرني بمرض أبي اسودت الدنيا في وجهي. تركت كل شيء ورائي وقصدت بيتنا في سيارة أجرة. وجدت أبي طريح الفراش في شبه غيبوبة. وكان أصابه مرض عضال قبل مدة، وعالج كثيرا، لكن يبدو أن ساعته قد أزفت.

بعد رحيل أبي عدت إلى المدينة لمواصلة حياتي. ترجتني زوجة أبي ألا أقطع صلتي بهم وأن أزورهم بين الفينة والأخرى. قالت لي: «اسمع يا ولدي... أنت كبير العائلة الآن وهذا بيت والدك، وإخوتك يحتاجون إلى دعمك. صحيح أن والدك ظلمك لكنه كان يذكرك بخير وظل يسأل عنك.» قلت لها: «صحيح... لست حاقدا، يظل هو أبي وأنا ابنه.» ورأيتها تبكي في حضرتي فكانت المرة الأولى التي أراها فيها تبكي. هل ندمت على شيء؟ ربما! وسألني أكبر إخوتي من أبي: «أريد أن أزورك في المدينة.» قلت له: «مرحبا بك... وبكم جميعا، أنتظر زيارتكم لي في بيتي بالمدينة.» بعدها بشهر زارني أخي وعندما وجدني أقطن في شقة بغرفة واحدة قال لي: «فعلتُ حسنا إذ جئتك بمفردي... أمي تسلم عليك، وتقول لك هذه قنينة عسل فيه شفاء لك».

فرحت بزيارة أخي، وبقنينة العسل الحر. وحين هم بالمغادرة بعد يومين قال لي: «سأعود عندما يحل فصل الصيف لتعلمني العوم». أبهجني حماسه ونشاطه فقد كان في بدايات الشباب. وكان بعكس أخويه الأصغرين الأكثر ذكاء وفطنة. سألني أسئلة كثيرة، وكان يندهش أحيانا من إجاباتي التي لم يتوقعها. صححت له الكثير من الأمور التي سمعها عني، وعن سبب مغادرتي البيت مطرودا، وعن حقيقة اعتدائي على والدته. حكيت له الحكاية كاملة وبدا لي أنه صدقني. وحين ركب الحافلة وأعطيته قليلا من المال وهدية للذكرى قال لي: «أنت أخ رائع.» وأوصيه بأن يعتني بوالدته وبأخويه الأصغرين.

كان والدي متوسط الحال، ترك بيتا، وحقلا، ومعاشا. لم أفكر في مزاحمة إخوتي في تركته، وإلى اليوم لم أطالبهم بشيء، ربما أفعل ذلك مستقبلا، بعد أن يستكمل إخوتي بناء مستقبلهم. من يدري، لعل الحال يتحسن بقريتنا الجبلية وتفك عنها العزلة القاتلة، الطريق تعبد بالإسفلت، والماء يتوفر في الحنفيات، وربما الغاز أيضا. حينها فقط يمكن للمرء أن يحيا مثلما يحيا البشر اليوم. وأن يشتغل الناس بحقولهم مطمئنين لا يأبهون لحلول الشتاء المفاجئ ببرده، وصقيعه، ووحله، وجوعه. ويدرس الأطفال ولا ينقطعون عن مدرستهم البعيدة. وإذا سقط الثلج كثيفا فيكفي إزاحته بالآليات عن الطريق المعبدة، وتعود الأمور إلى نصابها في وقت وجيز.

بنظري لا يمكن للقروي مهما انغمس في حياة المدينة أن ينقطع تماما عن جذوره، عن طفولته وبداية شبابه، وعن ذكرياته التي لن تمحى مهما حاولت مشاغله اليومية ومغريات المدينة أن تطمسها.

(١١)

يكاد النهار ينتصف وأنا ما زلت مع أوراقي وخربشاتي القديمة ...

ينتابني شعور بمتعة ممزوجة بالأسى وأنا أسترجع ما كتبته من وحي الخيال. خيال خذلني بعدها وصيرني نادما بعض الشيء على أمور كثيرة. كان معظم ما كتبته بين سني العشرين والثلاثين. وقبل الثلاثين بقليل مررت بتجربة أحسبها القشة التي قسمت ظهر رغبتي في مواصلة الكتابة. حادثة حولتها إلى قصة قصيرة كانت نسبة صلتها بواقع حياتي كبيرة. بعدها انكفأ إبداعي وجف قلمي، إلا من محاولات عابرة وفقاعات ملونة لرجل أصبح أكثر نضجا وحكمة.

ومن آخر ما كتبته كانت هذه القصة التي وجدت فيها بعض عزائي، وخففت قليلا من ألم ألمّ بي حينا من الدهر، ودقت آخر مسمار في نعش كبريائي. كان عنوانها «بعد أول منعطف» قلت فيها:

«بدت لي من بعيد على الهيئة نفسها التي لمحتها عليها أول مرة. وحيدة على المقعد نفسه في الحديقة نفسها. بينما كانت نسمات خفيفة تداعب خصلات شعرك بحنان راحت عيناك ترقبان مجموعة من الأطفال يلعبون في أقصى الحديقة ويتصايحون. كان بينهم طفل يبدو أصغرهم منزويا تحت شجرة يتفرج فيهم ولا يلعب. لذلك رحت تحدقين فيه أكثر، ولعله فطن إليك فراح بدوره يبادلك النظرات من مكانه البعيد. اقتربت منك أكثر واستأذنتك بعدما حييتك. لم أتوقع ردة فعلك، لكن جدار الصمت الذي توهمت سرعان ما ذاب بيننا من دون عناء يذكر. وبعد لقاءين أو ثلاثة صرنا نتحادث كأننا تعارفنا منذ زمن بعيد. هكذا اتفقنا على أن نسابق الزمن. ومع لقاءات آخر الأسبوع زاد تعلقي بك أكثر. وأحسبك رضيت بعد إلحاح كبير بمصاحبة جنوني فاستسلمت مثلي لأسر حلم ممنوع. بعد شهرين نتقابل من جديد في المكان نفسه، أجدد لك التعازي في والدتك. أقترب منك أكثر، أنظر في عينيك المتعبتين وأسألك عن عملك، وتجيبين بانكسار: «فقدت طعمه منذ زمن!» وشبكت بين أصابعك حتى تتحكمي في توترك أكثر. وسألتك وعيناي تتفحصان خاتمك الجديد: «هل سافر والدك؟» وأجبتني: «رجع أمس...» وأضفتِ بتأفف: «ما يزال على موقفه الأول؟» هممت أن أكرر على مسمعك موقفي وأنني لن أتخلى عنك، لكنك استعجلت في إسماعي قرارك الأخير: «اسمع... كن عاقلا... لا أريد أن أخسر والدي... أنا لا أناسبك، وخير لنا أن نفترق.» علمت متأخرا أنك كنت تتحججين فقط وأنني كنت مجرد عجلة احتياط. في ذلك المساء الأخير فيما كان قرص الشمس يقترب شيئا فشيئا من المغيب، وكانت هبات الريح تزداد عنفا منذرة بمقدم العاصفة، وفيما نحن سائران نهم بالخروج، لفت انتباهي ذلك الصبي يشيعنا بناظريه.. في أسى! وفيما كان الأطفال الآخرون يتصايحون وهم يلعبون،

وقفت أمامك قرب باب الحديقة الحديدي الضيق، واقترب جسدانا اقترابهما الأخير لنواصل مسيرنا خارجا على الرصيف لنفترق بعد أول منعطف.»

تعجبني هذه القصة لأنها تحكي عن بطل يشبهني، يأمل أن يحالفه الحظ ويبتسم له، ولكن حينما يعاكسه ويصفعه بالألم لا يجد إلا أن يغير وجهته ويمضي في حال سبيله غير آبه بشيء. لا يندب، ولا يجلد، ولا يعظ على أصابع الندم.

إنني على يقين أن الحياة تعاش مرة واحدة، وهي مثل أن يمنحك قدرك قليلا من الرمل بمقدار كفك فتحاول الإمساك به فينفلت من بين أصابعك، وتحاول عبثا الإمساك به كاملا، وكل حبة رمل تنسل من بين أصابعك يستحيل عليك استردادها، ومهما حاولت فلن تحتفظ منه إلا بالنزر القليل.

بعد سنوات قليلة يجف ينبوع التهور ويزداد تعقلي، ويجف معه قلمي، وتتناثر أوراقي وأحلامي. أحلام تافهة كالسراب، أحلام وردية وأخرى كالأشواك، وكنت تافها، بل لم أكن أعي. مشيت أياما وليالي سكرانا بلذة الأحلام وصدقت الرؤيا، ورجعت آخر المطاف القهقرى وانطويت على نفسي في حجرتي. لا شيء يستحق الاهتمام... لا شيء غير الزيف والوهم.

(١٢)

إنه ثالث أيام عطلتي الميمونة...

لم يحدث شيء يستحق الذكر. غير أنني أطلعتكم على بعض أسرار حياتي السابقة بالرجوع إلى بعض ما كتبته من قصص تشبه في أحداثها وشخصياتها إلى حد ما أحداثا وشخوصا مرت بي في حياتي الواقعية، التي تشبه بدورها حياة معظم البشر هنا وهناك. وتبقى هذه القصص قصصا متخيلة لا أكثر ولا أقل. أعدت قراءة بعضها ولم يتبق سوى أقصوصات وخواطر وبعض الأشعار كنت أكتبها بين الحين والحين هنا، أو في مكان العمل، أو في الحديقة، أو في المقهى، أو في خلواتي

على شاطئ البحر، أو في رحلاتي القليلة في وسائل النقل... فحيثما كانت تداهمني فكرة ما تستحق التسجيل كنت ألوذ بمفكرتي أسجل فيها على عجل نصوصا في شكل أقصوصات في سطر أو سطرين أو أكثر. وما كان مثيرا في هذه الأفكار أنها كانت في الأغلب تنقدح بالذهن دونما إنذار. هكذا بصورة مفاجئة، من دون تخطيط مسبق.

سأترك أمر الأقصوصات إلى وقت لاحق، ولأذهب خارجا لأتسكع قليلا. أفكر في أخذ جولة صباحية إلى السوق في وسط المدينة، أقتني بعض الخضروات والسمك الذي مر وقت طويل على تناولي إياه، اشتقت إليه. وفي الواقع فقد استصعب علي أمر وضع برنامج لهذه العطلة التي أرى أيامها تنفلت من بين أصابعي يوما بعد يوم، وساعة بعد ساعة...

كنت في السابق، في السنوات التي مضت منذ بدأت العمل في وظيفة عمومية، كنت أنظر في العطلة على أنها فرصة للراحة وتجديد ما ترهل من خلايا الجسم والمخ في العمل الذي كنت مقبلا عليه بحماس بادئ الأمر. أما الآن فقد اتسع أفق رغبتي في استغلال العطلة في أمر مثير يتجاوز عدها مجرد محطة للراحة والنوم واسترجاع الأنفاس. صحيح أنني لست من ذلك النوع الذي يحب الأسفار البعيدة، أو هكذا كنت أعد نفسي، إلا أنني لا أجد مبررا مقنعا يجعلني أجزم أمام نفسي أن السفر أمر سيء ولا فائدة ترجى منه. أسمع بداخلي الآن نداء يدعوني لإعادة النظر في فكرة اعتنقتها طوال سنوات من عمري وجعلتني منكفئا على ذاتي، فكرة جعلتني أرى في الترحال لغير ضرورة، والابتعاد عن البيت والحي وحدود المدينة مغامرة غير محسوبة العواقب. وما كان ضروريا بالنسبة لي وجديرا بحمل أمتعة السفر وتجشم عنائه، حصرته في أربعة أمور لا غير: الدراسة، والعسكرية، والرياضة، والعلاج. أما السفر من أجل السياحة فكنت أراه مضيعة للوقت والمال.

أذكر أنني قرأت مرة في مجلة تهتم بالسياحة والأسفار عن فوائد السفر العديدة كنت غافلا عنها، فهو بحسب المجلة يغير نظرتنا للحياة بالدخول في تجربة

تعايش مع ثقافات ومجتمعات جديدة، والسفر أيضا ينمي التفكير ويفتح الذهن ويكسر روتين الحياة اليومية. لذا قد يكون الابتعاد عن الروتين اليومي لبعض الوقت من شأنه أن يجدد الدماء الراكدة فيعود المرء إلى عمله بنشاط وحيوية أكبر. ناهيك عما تشاهده العين ويستحضره البصر من أماكن جديدة وصور أناس غرباء، وربما يؤخذ من خبراتهم في الحياة، ويستفاد من تجاربهم في الرحلات والأسفار.

شخصيا صرت أعاني كثيرا في السنوات الأخيرة من الروتين القاتل والملل الذي لا ينتهي. لذا فمن البديهي أن أقتنع الآن بمزايا الترحال وأن أغير موقفي الأول من دون تلكؤ.

كانت هذه الخواطر تجول بفكري وأنا في طريقي إلى السوق. وفيما أنا أمر على أكوام النفايات والأوساخ المتجمعة هنا وهناك أزداد قناعة بأن مدنا أخرى نظيفة جدا ومنظمة جدا في هذا العالم الواسع تستحق أن تزار، وأن يتمتع المرء بجمالها وروعتها قبل أن تكل همته ويدهمه الخمول. تتوارد بذهني الآن صور لتلك الشوارع في تلك المدن التي يصفونها بالمتحضرة، شوارع يستحي أن يسير فيها المرء بثياب رثة ونعال متسخة. حيث النظافة والنظام يتجسدان في أحسن أبهة، فتحس بأنك كائن مهم، ولست عبئا ثقيلا على الحياة.

وجدت السوق المغطاة كحالها مذ عرفتها قبل مولد هرتي الراحلة. يتجمع بداخلها مزيج من روائح الخضار الجديدة والفاسدة، والفواكه الطازجة والعفنة، والحشائش والأتربة والماء الراكد... وفي الجوار فضاء آخر لبيع الأسماك من مختلف الأنواع، تنتشر روائحها في المكان أيضا. وحين يقابلني هذا المزيج من الروائح مضافا إليها رائحة عرق الرجال وعطور النسوة في زحام يزداد مع مرور الوقت، يزداد إحساسي بالغثيان فأنسحب بحذر في ممر ضيق متحاشيا إيقاع ما يصادفني من سلع مطروحة على طاولات العرض حيث تتعالى من جنباتها الأصوات الصاخبة بين الباعة والمشترين.

اقتنيت بعض الخضار والفواكه الموسمية، وعرجت بسرعة على سوق السمك القريب لأعود أدراجي إلى البيت قبل ارتفاع درجة الحرارة أكثر. وفي طريق إيابي صادفت قطين لطيفين، قطة سمينة وقط هزيل، وانطلقا يموءان من حولي يطلبان السمك الطازج. وخيل إلي أن القطة السمينة تشبه هرتي الراحلة، فما كان مني إلا أن توقفت ومددت يدي إلى داخل الكيس وأخرجت منه سمكتين من تلك السمكات المسحوقات ورميت بهما إليهما فتلقفتهما الهرة المكتنزة بحركة رشيقة قبل أن تقعا على الأرض، ورأيتها تستأثر بهما لنفسها وتلتهمهما معا بشراهة كبيرة، فيما بقي القط الهزيل ينظر وينتظر نصيبه أيضا. حز في نفسي حظه العاثر وأشفقت عليه فرميت إليه بسمكة كبيرة الحجم معتدلة القوام لم يمسسها سوء، فعلت ذلك رأفة به وانتقاما من القطة الشرهة، ولعجبي منها أن رأيتها تهجم على القط البائس كاللبؤة وتخطف السمكة الكبيرة قبل وصوله إليها.

تركت الهرين ومضيت في حال سبيلي في حال بين المرح وعدم الرضى. ولأنني كنت كريما مع الهرة المكتنزة فقد تبعتني ملتمسة المزيد بموائها الحاني تارة والمجنون تارة أخرى، فيما انسحب القط الهزيل منهزما، مكسور الخاطر، يصدر من أعماق بطنه الضامر مواء حزينا ينفطر له القلب وتدمع له عين القمري. هذا هو حال الدنيا يا عزيزي الهر! لا تفكر لوهلة أن تركن إليها وتسلم لها مقاليد أمورك، حتى لو أبصرتها تبسم لك، ورأيتها تغدق عليك من حنانها ولطفها المزيفين. في آخر الأمر ستركلك حتما بعد أن تأخذ ما تريد وتحقق مآربها منك.

لكن مهلا! أتحققها من هر هزيل مثلي؟! نعم يا صديقي، من هر مثلك ومثلي، ومن الفأر، ومن النملة، ومن الصرصور، ومن الذباب، ومن السحالي، ومن الثعابين، ومن العقارب، ومن بني البشر المنفوخين والمسحوقين على السواء... ومن كل كائن يدب ويكدح. الجميع عبيد لهذه الآلة الجبارة المسماة الحياة. إني أراها آلة تستنزف طاقتهم لتستمر في العمل، وهم يسخرون جل وقتهم وجهدهم لاسترداد تلك الطاقة المستلبة بالأكل والنوم والتناسل. ونحن لا نحيا الحياة، بل نحاول

مغالبتها فتصرعنا جميعا في نهاية الأمر. والأدهى أنها تجعلك تزهو بغنيمتك بعد أن تصرع وتهزم غريمك من بني جنسك، كما حدث للتو بينك وبين أختك البدينة التي صرعت من أجل سمكة مطحونة.

جالت بخاطري هذه الخواطر الفلسفية والأدبية وأحسست بالانتشاء. فعلا إن التفكير بالنسبة إلى العقل يشبه التدليك بالنسبة إلى الجسم. ومع قليل من المشروبات المنشطة والتبغ يصبح إعمال الفكر في مثل هذه القضايا الفلسفية متعة ماتعة.

اقتربت من الحي وما زالت القطة تتبعني... فكرت في أن أركلها بعيدا لئلا تكشف عن مشترياتي أمام الجيران، ولأتخلص من موائها الذي فلق رأسي. لكنني رأيتها تنسحب بعدما جاوزت منطقتها بكثير أو إنها يئست من بخلي وأحسست بأنني سأركلها. واصلت سيري مستشعرا ذلك الإحساس البهيج حينما يعثر المرء على طريقة فعالة للخلاص من المنغصات: أن تركلها بعنف وتمضي في حال سبيلك.. هذا هو الحل الحاسم.

عند مدخل البناية التقيت جاري المسن يهم بالخروج فحييته. تنحنح ورد علي التحية من دون أن يتوقف أو أن يرفع ناظريه عن موطئ قدميه. هممت أن أسأله عن حاله لكنه عاجلني بصوته المبحوح: «أنت محظوظ يا رجل... محظوظ جدا.» ومضى في حال سبيله من دون أن يضيف شيئا. لم أفهم قصده. لكنني لم أستوقفه لأستوضح منه قصده بعبارته تلك، فقد بدا لي مستعجلا. وعددت ما تفوه به فألا حسنا صدر عن شيخ عجوز خبير، لكن الرجل غريب الأطوار لا أحسبه يهتم لأمر حظي. وفي الواقع فقد احتفظت في عقلي الباطن بمقولته ورحت أقلبها في داخلي بعض الوقت. واستنتجت أخيرا بعض الإجابات المنطقية التي أقنعتني قليلا لما ربطت قولته تلك بحاله مع زوجته المهذار.

نظفت السمكات وألقيتها في المقلاة ورحت أستمتع برائحتها الزكية. كنت أتضور جوعا مثل دب أشهب شره خرج للتو من سبات شتوي طويل. وهذا الفلفل

الحار كجحيم ملتهب. سأكثر من قطع الطماطم الطازجة وأغرق الجميع في زيت زيتون معتقة. طبق من السمك وطبق آخر من سلطة الفلفل الحار بالطماطم، وبعضا من الخبز الأبيض المقرمش، أختمها بكأس من عصير الليمون الطازج. أعتقد أن هذا سيكفيني لإسكات جوعي وأخذ قيلولة إلى ما بعد العصر.

(١٣)

أيام العطلة تعدو مسرعة مثل أرنب بري. مضى ثلثها وبقي الثلثان...

يصبح الأمر كله مدعاة للسخرية والإحباط عندما تنتظر وقت الراحة بشغف فيضجر منك هذا الوقت بسرعة ويستعجل في الرحيل. تمهل أيها الوقت المحبوب، تريث ولا تتعجل المغادرة، ولتمد رجليك ولتسترخي على أريكتي القرمزية. سأهبها لك وحدك. وهلم بنا نتجاذب أطراف الحديث. ولتساعدني في البحث عن ذاتي في ظلمة ليلي الحالك. لا أطلب منك المستحيل، أعلم أن الأمر ميؤوس منه، وأن الداء استفحل. فقط أريدك أن تتمدد وتستفيض، وتتوقف إن أمكنك التوقف، وحبذا لو عدت بي إلى الوراء قليلا، لأعيد النظر في اختياراتي الخاطئة... لطفًا.

اشتقت كثيرا لفأر الحكايات. من كان يتخيل أن أصاحب فأرا يفكر وينطق بالحكمة أفضل من كثير من بني البشر. أحتاجه اللحظة ليقاسمني بعضا مما أنا فيه من تيهان، عله يجود علي بفكرة من أفكاره النيرات، أو يكتفي بالإنصات إلى صمتي. قال لي مرة:

«إن أنت قررت التخلي عني فستكمل حياتك وحيدا في بؤسك.»

وكان ردي قاسيا على قلبه الصغير: «فلتغادر إذن أيها الكاهن الدميم... تبا لك!»

لكنني أعترف أنه كان محقا في نبوءته. لكنه يبقى فأرا سمجا ليس له من غاية في الحياة إلا القضم والنوم والتناسل.

ما أود سرده عليكم وأنا مستلق على أريكتي القرمزية بعد عشاء خفيف وحار، بعضا من نصوصي القصيرة جدا، لا أريد منكم رأيا فيها إيجابا أو سلبا، فأنا لا أهتم برأيكم فيما أنشره من ترهات. وإن كنت لا أشك البتة في كفاءتكم في تقييم ما تقرأون أو تسمعون من نصوص أدبية، ولتعلموا أنني لا أكن لكم إلا الاحترام والتقدير الكبيرين. وحبذا لو تكرمتم علي بالقليل من وقتكم لتطلعوا على هذه المحاولات، من أجل الترويح عن النفس، ودفع بعض الملل المتكدس في صدوركم وتحت جفونكم. وما يهمني أنا من تكرمكم علي أن أحظى بقراء أذكياء متساهلين، يقرأون من أجل الاستمتاع، أو من أجل تزجية الوقت واصطياد الأخطاء لا غير.

في هذه الأوراق أمامي مجموعة من الكتابات سميتها «أقاصيص وامضة» بسبب قصرها. أقرأها عليكم من غير ترتيب أو تنسيق. كانت أفكارها في الغالب تأتيني عفوا من دون كد أو جهد يذكر، هكذا دونما مقدمات. أو إن حادثا ما يقع أمامي، أو خبرا أقرأ عنه في كتاب، أو في جريدة، أو في مجلة، أو مشهدا أعاينه في الشارع، أو في مكان العمل، أو ذكرى قريبة أو بعيدة تطفو على السطح فجأة، فيثير ذلك بذهني فكرة ما تبحث عن ثوب منسوج في شكل حروف وكلمات منظمة على الورق لترتديه، أو في شكل نص يتصيد قارئه ليمنحه صفة الأدبية والتفرد والخلود.

لأبدأ إذن بعرض بضاعتي المنتقاة بعناية لأجلك أيها القارئ السعيد:

.. فجوة ..

قالت: إن أنت قررت التخلي عني فأنا أهديك مستقبلي كله... قال: تهديني ماذا؟ بأسى ابتلعت جهله. لا تضعفي أمامه.. هو الذي يحب الهدايا.

.. كتمان ..

صرخ بأعلى صوته: وأخيرا أنهيته.. وقام دافعا كرسيه بثقل جسمه إلى الخلف محدثا جلبة. وسألته وهي تفرك عينيها: مالك تصيح.. ألم تنم بعد؟! عفوا يا عزيزتي.. لقد أنهيت الكتاب.. أيُ كتاب؟ وما هذه الأوراق المبعثرة من حولك؟ نظر حوله وانفجر مقهقها: لن أخبرك الآن.

.. حياة واحدة وساردان ..

كانت تحب سماع الحكايا منه كل مساء، وعلى نهاية سعيدة أو تعيسة كانت تنام... لذا كان شرطها الوحيد أن يحسن طالب يدها سرد الحكايا لتحيا معه طفولتها الغابرة من جديد. وهي تنظر في صورته الموشحة بالسواد... تطلب إليه الاعتذار.

.. تهرب ..

سألته: لماذا صرت تتهرب مني؟ أجاب متلكئا: الحلم مثل المطر نراه يقترب.. يقترب... لكننا نتوجس خيفة ألا يصل، ولما يصل نختبئ منه كيلا نبتل فنرشح.

.. تحقيق ..

يفتش عن نفسه وسط تلك النظرات: نظرة تتفحصه وأخرى تهمله. نظرة ترفعه وأخرى تهوي به. نظرة تدفعه وأخرى تجذبه. نظرة تتفهمه وأخرى تتهمه. نظرة تستدين منه وأخرى تدينه. نظرة تعجب به وأخرى تسحق ظله. نظرة تحالفه وأخرى تبغي هزمه...

.. ترقب ..

بحرقة ممزوجة بلامبالاة مصطنعة تنتظر التفاتة. ستأتي حتما أو ربما، لا يهم... هي آتية منه، منها، منهم... لكن هو، وهي، وهم لم يلتفتوا. مضى اليوم رتيبا، ثم خانقا، ثم... كل واحد منهم كان يترقب الاهتمام نفسه.

.. عبوس ..

تسألني لم أنت محزون وعبوس؟ والتحايا من حولك... قلت لها: ... والظنون. أيقنت أنه لم تعد غير بقايا. لتذرو الريح كسلك العقيم.

.. بلل ..

على جبينه قطرات من عرق، ولما يئس من الحل نظر عبر النافذة ورأى منظرا... رأى متسولا يرتعش من البرد وحوله البلل.

.. بقلم الرصاص ..

قرر أخيرا أن يخاطبها برسالة صغيرة يدسها في مكان ما قريب منها... لم يجد قلما. بحث عنه. ولما وجده ضاعت منه فكرة البداية... زاغ وامتلأت عيناه بشيء رطب وحار... كتب أخيرا بقلم الرصاص بخطه المشاكس: متى تعودين يا... لكن الجرس رن.

.. طمأنينة ..

يستأنس بداخله بمأثور من القول يستعيده كلما خاب... تعب كلها الحياة... ويتأفف برأس يهتز كهندي معمم يلف سيجارته الرابعة... ويبتسم.

.. سلام داخلي ..

يمشي بخطوات ثقيلة. يترنح يمينا ثم شمالا ويتوقف. يستدير وينظر خلفه ويتأفف. يصغي إلى الصوت الذي توقف فجأة. تنتاب جسمه قشعريرة وبرودة.

يسكن في مكانه قليلا. يرى خيالا في الأفق البعيد ويتنهد، ثم يواصل سيره بعد أن اطمأن قلبه.

•• إشفاق ••

صمت بعدما تكلم طويلا وبح صوته. وحينما أشفقوا عليه لما لحق بحنجرته من أذى وافقوه كيلا يذبح حباله.

•• مشاغبة ••

في الممر الضيق يلتقيان... ومن الشرفة من فوق تنطلق قارورة ماء وجزمتان... وصوت أجش: أغربا عني أيها الهران البدينان ...

•• رأفة ••

هو... يصمت طويلا كيلا يتحول إلى وحش مفترس... رأفة بها. هي... تخاله ضعفا كهذه الجريدة.

•• إبحار ••

يمضي المسافر في بحر حياته رتيبا إلا من بعض أشواق تستيقظ بين الحين والحين، كتأملات للحظات بعيدة يخيب جلها أو بعضها ريثما ترسو السفينة.

.. تجهم ..

كان من عادته أن يبتسم كلما قابلته صباحا... هذه المرة قابلني متجهما! هممت أن... رد علي قبل أن أنطق، أو بالأحرى خاطبني: مالك تبدو متجهما هذا الصباح؟!

.. قهوة مركزة ..

بتسريحة مشاكسة وعينين محمرتين من عدم النوم قابلته... أو قابلني صباحا. قعدنا وطلبت قهوة. وطلب قهوة مخففة كالعادة. لكنه تدارك: بل اجعلها مركزة جدا... ومع نفسه تمتم: قاتمة مثل... ولم ينبس بالمزيد لمعرفتي بالخبايا.

.. خطتان متعاكستان ..

كانت الخطة محكمة: أن ينام باكرا ليستيقظ باكرا. وفي الجهة الأخرى كانت الخُطة محكمة أيضا: أن يستعين بنومة النهار على سهرة طويلة.

.. زهرة الرحيل ..

اسمها لم تختره هي ولم تختر ملابس الطفولة... ولا الحي العتيق... ولا ابن الجيران القبيح... وبداخلها حيث تحبس أحلامها البريئة مرتعشة كيرقات الفراش.

هي الآن بعد عقود ما تزال تحن لابن الجيران القبيح... الوحيد الذي تجرأ يومها ليعطيها زهرة الرحيل.

•• وطأة ••

تئن تحت وطأة الإحساس بالضياع... ولصمت ما لم تعد تنبس للجدران ببنت شفة... هي لا تريد لعذابها القدسي أن ينكل به الأنذال... تستعذبه برفقة الذكرى أو الآتي. هي لم تعد تطيق النظر في مرآة العرافة.. كيلا تستفيق.

•• استسقاء ••

يقلب عينيه في تلك الأسطر... كلمات كالجواهر، تمتم مع نفسه. وحدثته الأماني: كلماتك أبقى لو أطلقت العِنان للمكبوت بداخلك. رد عليه التثاؤب: لا تنصت لهؤلاء المرضى، ما جدوى التشدق والتقعر في زمن الذباب. قرر أخيرا مجاراة الوهم، سأكتب لك يا جمهوري الذي غيبتني عنك مشاغل الحياة... تبا وسحقا، صرخ أخيرا وهو يستمطر أفكاره.

•• الحلقة المفقودة ••

لاح لي حزينا على غير عادته. سألته: مالك تبدو حزينا مثلي؟ خيرا؟ لم يجبني. ورحل. غضبت ثم حزنت أكثر، وعزمت على الانتقام... لقيته منبسطا مساء، سألني: مالك تبدو منبسطا مثلي؟ خيرا؟ لم أجبه. وهممت بالرحيل لكنني أحجمت عن ذلك عندما تذكرت شيئا.

.. العمود العتيق ..

قرر الابن والدم يسيح من أنفه أن يهدم ذلك العمود اللعين. كان ورثه مع البيت العتيق عن جده القديم... كان العمود القائم وسط البيت من خشب متين، وكان يبدو حاملا السقف كشيخ قوست ظهره أعباء الحياة... ولعله كثيرا ما حدث السقف عن العمى الذي أصاب الابن فضل طريقه كالمخبول... وكان السقف يواسيه.

.. الرقم خاطئ ..

بعصبية أشعل سيجارة ليطفئ غضبه... تراجعت حدة الغضب قليلا... سيجارة ثانية... وثالثة... زال الغضب الآن. نظر إلى الساعة على الحائط، وتذكر أمرا... كانت الساعة هدية نجاحه ما قبل الأخير. أمسك الهاتف. حاول الاتصال مرة، ومرتين. تشجع أخيرا... بحث عن اسم قديم... حدق فيه مليا. وأشعل سيجارة... جاءه الرد أخيرا: الرقم خاطئ.

.. عربدة ..

ما جدوى كل هاته القنوات؟! فكر مع نفسه. سأحذف منها وأترك ما يهمني. فكر مرة ثانية. ولثالث مرة فكر وقدر: هذا عمل متعب جدا. توقف عند قناته المفضلة، بدأت عيناه تذبلان من النعاس... ونام من دون أن يشعر. فجأة سمع صوتا يناديه ملتمسا منه النجدة، فتح عينيه الذابلتين على مشهد مريع، كانت قناته

المفضلة مكبلة وحولها بقية القنوات يعربدن. وسمع إحداهن تخاطبه: تحذفنا... يا سمين!... وقهقهت الأخريات طويلا واستمرت العربدة إلى مطلع الفجر.

.. الضمير وقت الفجر..

كان الوقت فجرا وباردا عندما أيقظني طرق عنيف على الباب. قفزت من السرير مرعوبا بعدما أيقظت الجانب الشجاع من نفسي. ارتعب هو الآخر ووبخني بشدة... تنحنح الجانب الجبان واستجمع شيئا من قواه وخاطبني إياك أن تفتح سيتوقف قلبي... عد إلى النوم. أنام؟! كيف؟ أشعلت الشمعة أخيرا. وتسمرت في مكاني ثم صرخت: من؟ لم يجب. مرت ربع ساعة... نصف ساعة. كانت المرآة تحملق في حالتي المزرية... أطفأت الشمعة بعدما أدخلت ذلك المتشرد بلا مأوى ليحكم بين الجانبين المتعاركين لعلي أخلد للنوم.

.. عن شواردها ..

يعاود قراءة ما كتب ويحس بالغبطة... ثمة خطأ نحوي، يعجل بتصحيحه. خطأ آخر إملائي، لا بأس. يملأ صدره ويزفر ببطء... سيعجبهم حتما. برأس القلم يضع نقطة وينهي الأمر... ينجح الأمر أخيرا وراح يطلب النعاس لعينيه.

.. حماقة ..

يراجع كلمات قالها قبل سنين... يحس بالفخر يملأ الخواء بداخله... هي فكرتي، نعم! هي فكرتي أنا، لم يقل بها غيري... ويدور بخلده: لكن ما بال هذا العجز

الذي أصاب همتي؟! أفترض ألا أحد يستأهل جواهري بعد أن تكرمت ببعض منها دونما طائل أو عائد... نعم، ليس ثمة إلا العطب... إلا العطب.

(١٤)

لم يتبق إلا النصف الآخر من عطلتي قبل أوبتي إلى منبع ضجري ومللي...

قررت أخيرا أن الوقت قد حان لتجديد دهان شقتي. كنت برمجت ذلك قبل عام، وأرى أني ماطلت كثيرا في إتمام ذلك، لكنني قررت قرارا حاسما لا رجعة فيه أن أشرع في ذلك اليوم أو غدا على أقصى تقدير. سأقصد محل بيع الدهانات في الشارع القريب لأقتني ما يلزمني من أدوات: علبة دهان أبيض، وملون، وفرشاة، ولولب، وشريط ورقي لاصق... وماذا أيضا؟ هذه فقط ربما! حسنا سأسجل كل هذا في ذاكرتي، وسأسحب القليل من مدخراتي الغالية لأقتني هذه المستلزمات.

أفكر في الألوان التي سأختار للجدران. لونها الحالي باهت لا يشعرني بالارتياح مطلقا. أفكر في لون آخر يبهج النظر ويريح الذهن المكدود. يعجبني اللون الأخضر أو الفستقي على الجدران. إنه لون مبهج ومريح ومسالم. واسمه يذكرني بالفستق. لا أذكر آخر مرة تناولت فيها الفستق. لكنني أعثر على نتف منه في حلوى الشامية التي أشتري منها بين الفينة والأخرى من بقال الحي ذاك.

في صباح يوم تال، أحسبه كما يحسبه الناس يوما جديدا قصدت الشارع الكبير في المدينة العتيقة، ولأنني تذكرت الشامية بالأمس فقد قررت اليوم أن أشتري علبة كاملة احتفالا بإعادة طلاء شقتي باللون الفستقي البهيج. وهكذا رحت أسير في الشارع شبه الخالي وأمر على المحال التجارية التي ما يزال الكثير منها مغلقا. لا بأس فالوقت مبكر نوعا ما ولذا أجد نفسي مضطرا للتسكع بعض الوقت.

بعد مرور وقت غير يسير من السير بلا هدف، ربما لساعة أو أقل، وصلت إلى رصيف يطل على الميناء حيث ترسو قوارب الصيد. كانت تصلني منه بعض

الأصوات والروائح التي لا تصدر إلا عن مثل هذا المكان. صوت النوارس وصوت هدير محركات القوارب، وأصوات أخرى لا أعرف مصدرها. لم أشأ النزول أكثر إلى حيث تلك الفوضى، فقد كنت أبحث عن الصفاء، فقلت لم لا أخلو بنفسي قليلا هنا في هذا الرصيف. كانت هناك مقهى قريبة بجنبها مطعم السمك والمأكولات البحرية. كان المحلان يطلان على البحر. وكانا متجاورين ومتشابهين كأنهما توأم، يحملان الألوان نفسها، ونمط الكتابة نفسه، فاستنتجت أنهما ملك للشخص نفسه. وبعد أخذ ورد مع نفسي قررت العودة إلى وسط المدينة من طريق آخر.

عدت بعدها إلى شقتي في حدود الساعة الحادية عشر محملا بما يلزم من أدوات الدهان، كنت ذكرتها من قبل فلا داعي لإعادة ذكرها هاهنا. وتوقعت أن ألتقي جاري المسن خارجا كعادته يسحب نفسه بخطوات ثقيلة ووجه عابس، ممسكا بعصاه الغليظة، فيسألني بفضول عما أنوي فعله بهذه الأدوات. أذكر مرة ليست ببعيدة أني اشتريت دلوا بلاستيكيا من الحجم الكبير لأخزن فيه الماء لحالات الطوارئ، وعند المدخل استوقفني العجوز وسألني وعيناه مسمرتان في الدلو: «لم اشتريت هذا الدلو؟» وراح ينقره بعصاه. قلت له: «من أجل تخزين الماء، إنه الصيف يا عم». نظر إلي وإلى الدلو في يدي وتمتم مع نفسه وقال: «أنت رجل نبيه... ليس كما يشاع.» وواصل سيره في حال سبيله. لست أدري ما الذي كان يدور بعقل الرجل وهو يسألني عن الدلو، وما الذي قصده بقوله: ليس كما يشاع. لكنه كان غريب الأطوار.

بعد الغداء استلقيت على أريكتي القرمزية وشغلت تلفازي الصغير ورحت أستمتع بسماع قطعة موسيقية لملحن معروف، وبمذاق حلوى الشامية اللذيذ. منذ زمن بعيد لم أستمع لمعزوفات الموسيقى الكلاسيكية. كانت الألحان عذبة

وشذية، ومن شدة عذوبتها لم أشعر كيف راحت تحملني إلى عالم آخر مليء بالجمال. كانت الألحان تتراقص في فضاء الغرفة، وكانت تلامس قلبي وروحي. لم تكن مجرد نغمات، بل كانت سردا مؤثرا يروي قصة خيالية. وهممت أن أتخيل نفسي سابحا في عالم خيالي، أوقظ مخيلتي وأسمح للألحان بإثارة الصور والمشاهد في ذهني. فتشعرني بوجود قوة خفية تحملني إلى أماكن لم أكن أعلم بوجودها من قبل. وكل نغمة تفتح أمامي أبوابا وتغلق أخرى، وتكشف عن ألوان وروائح وتجارب جديدة. لا مناص من الاعتراف بأن للألحان مفعول مثل السحر يجعل كل الهموم والضغوط تذوب أمام تأثيرها الفاتن.

ولأن المنغصات لابد أن تحل عليك بلا استئذان في وقت الاسترخاء، فقد انقطع التيار الكهربائي فجأة وانطفأ جهاز التلفاز، وانقطعت ألحان الموسيقى الساحرة، وخيم الصمت على المكان، وعادت الغرفة إلى الهدوء التام. تركت أذناي تتأقلمان مع هذا الوضع الطارئ. وانتقلت بذهني إلى التفكير في سبب انقطاع التيار الكهربائي. هل هي مصادفة؟ أم أن الحظ بات يعاكسني على لحظات المتعة النادرة في حياتي لأسباب أجهلها حقا. لقد شعرت ببعض الحيرة والقلق لأنني كنت متشوقا لمتابعة الاستراحة الموسيقية التي كانت تعرض على الشاشة. ومع ذلك، قررت أن أستغل هذه الفرصة للتركيز على أمور أخرى أكثر فائدة، مع أن الصمت المفاجئ كان مزعجا.

تركت الغرفة وقصدت المطبخ باحثا عن شيء أسلي به نفسي. دخلت وبدا لي المطبخ كئيبا بلا كهرباء. أخذت مقعدي لألملم أفكاري المشتتة، وهمست لي نفسي: «ما رأيك في كوب قهوة قوي لدفع هذا الملل عنك؟».

ولأنني أملك الكثير من الوقت عندما أكون بالبيت فقد ألزمت نفسي بطقوس خاصة في إعداد قهوتي المنزلية. أخذت قليلا من حبات البن غير المحمص ورميتها في المقلاة القديمة، فأحدثت صوتا موسيقيا ناعما أطربني. شعرت بالشغف والحماس وأنا أراقب حبات البن تتحمص ببطء وتتحول إلى لون بني غامق. في ذلك الوقت، بدأت رائحة البن المحمص تغزو المطبخ برمته، وكأنها تعبير عن الحياة الجديدة والطاقة القوية التي ستمنحني إياها القهوة. بعدها وضعت القليل من الماء الزلال في الإبريق، وقبل وضعه على النار، رحت أطحن حبات البن المحمص بآلة يدوية عتيقة. كنت أرغب في تحقيق النعومة المثلى لاستخلاص أعلى قدر من النكهة والقوام. ومع كل لفة للمقبض، كنت أتخيل كيف ستتحول تلك الحبات الصلبة إلى سائل ساحر ينعش خمولي.

وضعت مسحوق البن في الإبريق ووضعته على نار هادئة، وفيما أنا قاعد أرقب غليان الماء رفعت رأسي إلى الرف ولمحت كتابا ممزقا في الزاوية. وتساءلت: «ما الذي أتى به إلى هنا!» أخذت الكتاب الممزق بين يدي. وتذكرت أني أحضرته من مكان عملي قبل أسبوعين من أجل إصلاحه والمطالعة فيه، لكنني نسيت أمره على الرف هنا. كان موضوعه حكايات خرافية مترجمة.

جهزت فنجاني الأثير وملأت ثلاثة أرباعه بالقهوة. وأضفت له ملعقتين من السكر وقعدت أترشفها بدعة وراحة بال. أحببت موضوع الكتاب ولذلك رحت أقلب صفحاته المصورة، وكانت مليئة بالقصص القديمة والمغامرات المثيرة، واستطاعت تلك الكلمات والصور أن تثير في مخيلتي عالما جديدا بعيدا عن الشاشة والتكنولوجيا الحديثة. كنت أستمتع بتشكيل الصور في ذهني وإعادة إحياء الشخصيات والمواقف المثيرة. واستمرت قراءتي في الكتاب الممزق، وكلما زادت

الصفحات التي عبرتها، زاد اندماجي في عالم القصص الخيالية العجيب. تخيلت الشخصيات والأماكن وكأنها تعيش وتتنفس أمامي، وكأنني أصبحت جزءا من تلك المغامرات المذهلة. ومع كل صفحة جديدة، كان إعجابي يزداد ببراعة الكاتب في سرد الحكاية وتصوير التفاصيل. كانت الكلمات تتدفق في خيالي، مثيرة في قلبي روح المغامرة والفضول لمعرفة نهاية الحكاية.

في لحظات الصمت التي انغمست فيها، شعرت بالسلام الداخلي يعم أفكاري وقلبي. كانت تلك تجربة ثمينة لم أتوقعها، تذكرت فيها قوة القراءة والسحر الذي تحمله الكلمات المكتوبة. كان الوقت يمضي بسرعة، ولكنني أدركت أن الجزء الذي قرأته من قصص الكتاب فيما أنا أترشف القهوة ستحفزني على مواصلة الاطلاع على بقية الحكايات العجيبة في فصوله الكثيرة. وراودتني فكرة أن أسترجع عادتي في قراءة الكتب واكتشاف القصص القديمة وأجعل ذلك جزءا لا يتجزأ من روتيني اليومي. لم لا؟ فالكتب هي الوحيدة التي تظل تمتلك تلك القدرة على نقلنا إلى عوالم مختلفة وتغذي خيالنا بطاقة لا حدود لها، وترافقنا في رحلات ممتعة ومليئة بالمغامرات من دون أي تأثير سلبي على بقية حواسنا، بخلاف جهاز التلفاز مثلا.

في هذه الأثناء، يتغير الجو فجأة بالخارج، وأسمع قطرات المطر تحدث صوتا متقطعا على النوافذ. لا شك أنها سحابة صيف عابرة. وها هي ذي رائحة الأرض المبللة والنضارة تأتي مع المطر الذي يزور المدينة فجأة من دون موعد مسبق. وفيما أنا أستمتع بصوت الأمطار الهادئة. بدأت أتساءل عن العالم الذي نعيش فيه اليوم، حيث تصبح التكنولوجيا سيدة الموقف ويصعب علينا أن نقضي بعض الوقت بمفردنا ونتمتع بالهدوء والسكينة.

كانت أوراق الكتاب متناثرة لذلك قررت أن أعمل على إصلاحه وتغليفه في وقت لاحق، حتى أستكمل قراءته كاملا. في هذه الأثناء يعود التيار الكهربائي فجأة، ويعود ضجيج الثلاجة ليملأ المكان. لم أكن أرغب في العودة إلى شاشة التلفاز مرة أخرى. بل قررت الاستمرار في قراءة الكتاب والاستمتاع بالسكون الذي أحاطني. حملت نفسي إلى غرفتي، وتمددت على أريكتي وفتحت صفحة الكتاب الذي كنت أقرأه عن آخر مغامرة للبطل.

بدأت الكلمات تتلاشى أمام عيني وتحل مكانها صور واقعية تجسد الحكاية كلها. كأن الروح نفخت في الحروف واستدعت الشخصيات إلى الحياة أمامي. وهكذا رحت أنغمس تدريجيا في العالم الخيالي الذي خلقته الكلمات. لقد تحولت اللحظة الهادئة التي تلت انقطاع التيار الكهربائي إلى تحفيز لخيالي وتجربة فريدة. اكتشفت أن الهدوء والصمت قد يكونان مفتاحا لاستكشاف أعماقنا واكتشاف العوالم الجديدة التي تنتظرنا بعيدا عن صخب الحياة اليومية والتكنولوجيا الملهية.

(١٥)

يوم جديد أردته أن يكون مختلفا...

شرعت في صباح هذا اليوم في طلاء شقتي الميمونة. وعلى مدار الأيام التالية استمرت الأشغال، وحولت الشقة إلى منظر بديع. غيرت لون الجدران إلى اللون الأخضر الفستقي، وصبغت الأبواب والنوافذ باللون الأبيض. وبعد أن أنهيت نظفت الأرضية وأعدت توزيع الأثاث. لكن على الرغم من إنجازي الكبير، لا تزال ذكرى فأر الحكايات تدور بذهني وأحس بالأسى لتسببي في مغادرته. صرت أفتقده

كل مساء أخلو فيها إلى نفسي وآوي إلى فراشي وحيدا بلا أنيس ولا سمير. وددت لو كان حاضرا فيشاركني هذا الإنجاز وأن نحتفل معا بشيء نأكله أو نشربه ونقضي ليلنا في سمر وحبور.

لحظة بعد لحظة ويوما بعد يوم، أدركت مدى تهوري وانفعالي الزائد. أدركت أنني قد بالغت في غضبي على الفأر البريء الذي كان يحاول فقط إسعادي. أشعر بالندم والأسف العميق لتصرفي الأرعن ذاك في حق مخلوق ضعيف ومسالم. وأحيانا أشعر بالحنين إلى صوته الهامس وقصصه المسلية. وأتمنى لو أستطيع العودة للوراء ووضع حد لتلك اللحظة الغاضبة التي فقدت فيها صوابي، وفقدت معها صديقي الوحيد. أعتقد أنني تعلمت درسا قيما عن ضرورة التحكم في غضبي أكثر.. ولكن الوقت تأخر.

إنه الضجر في هذه الليلة شديدة الحر. حر لم أعهده من قبل في هذا الصيف الممتد. الحرارة هذه الأيام لا تطاق، تسبب لي شعورا بالملل القاتل في غرفة ضيقة كالسجن، ومحاطا بالبعوض الذي يكاد يصيبني بالجنون، ورائحة الدهان الخانقة، وحبات العرق المتصبب. والهدوء المخيف الذي يسود المكان الذي أخذ شكلا آخر لم تألفه روحي بعد. وتراكمت الأفكار والأحاسيس بداخلي مثل مرجل على النار، ما جعلني أشعر برغبة في الانفجار.

أغمضت عيني للحظة وتخيلت نفسي أمام البحر، بعيدا عن هذا الروتين الممل. وتصورت نفسي أمام أمواجه الهادرة، أتنفس هواءه النقي وأشعر بنسماته الليلية المنعشة تلامس وجهي. هذه الأفكار أشعلت في داخلي رغبة حقيقية في الخروج الآن من هذا اللظى.

نهضت من مقعدي بكل حماس وأطفأت الأضواء وتسلحت بقنينة ماء باردة. لبست شبشبي وخرجت وعند الباب الخارجي واجهتني لفحة من الهواء الحار. وقفت للحظة ونظرت يمنة ويسرة، فرأيت الشوارع خالية من الحركة، وكأن العالم كله قد غط في النوم في هذه اللحظة.

قررت الاستمرار مع ذلك، فكانت الشجاعة هي مفتاح الهروب من الروتين القاتل. خرجت وأنا أحاول التقاط أول نسمة ليلية. كان الهواء يلفح وجهي بحرارته، والحشرات الليلية تملأ الأرجاء. وصوت نباح الكلاب الشريدة ينطلق من هنا وهناك.

واصلت السير في هدوء الليل، بعيدا عن أضواء الشوارع الفاترة وروائح حاويات النفايات المنزلية المتناثرة. ومع مرور الوقت، كنت ألتقي بمزيد من البشر أمثالي. واصلت سيرى في الشارع الرئيس وبدأت أستشعر نسيما منعشا يتصارع مع الحرارة اللافحة في الجو. ورأيت ظلالا متحركة تتلوى على الأرض العارية، لا شك أنها أشجار الحديقة الوحيدة التي تشعرك بلمحة عن الحياة البرية في قلب المدينة.

كانت المحال والمقاهي ما تزال مفتوحة، والناس يستمتعون في سهرهم وحياتهم الليلية. ولما وصلت إلى السوق الليلي المزدحم بالناس أدركت أن الفوضوية في الحياة قد تحمل بعض الإيجابيات، وعلى الرغم من أنها قد تكون تحديا، إلا أنها قد توفر بعض الفرص والفوائد المختلفة. كان مشهد السوق ساحرا بحق. المحال المضاءة والأكشاك الملونة تفيض بالحيوية والحركة. والناس يتجولون ويستمتعون بالأطعمة اللذيذة والحرف اليدوية البديعة. شعرت بالسعادة تتسلل إلى قلبي وتزيل كل آثار الضجر والملل التي كانت تعتريني.

قررت الانضمام إلى هذه الأجواء الساحرة واستكشاف ما تقدمه السوق الليلية. تجولت بين المتاجر والأكشاك، واستمعت إلى بعض الأنغام الموسيقية

الهادئة، وتذوقت بعض الحلويات الشهية. كان هناك بعض الأطفال يلعبون، وكانت الأجواء مليئة بالضحك والحبور.

لم أكن معتادا على الخروج ليلا، لكنني استطعت في هذه الليلة أن أروح عن نفسي بعض الشيء وأترك الضجر والروتين وراء ظهري. تذكرت أن الحياة لا تقتصر على المكان الذي نعيش فيه، بل هي مليئة بالمفاجآت والمغامرات إن كنا مستعدين لاكتشافها. وفيما أنا قافل إلى منزلي في تلك الليلة، أدركت أن الحياة تحمل دائما الأمل والمتعة والمسرة، حتى في أصعب الأوقات.

عدت إلى البيت في حدود منتصف الليل، فكرت في الاستحمام لأنام خفيفا، لكني تذكرت أن الصنبور في عطلة منذ البارحة وكمية الماء التي أحتفظ بها تركتها للطوارئ. وجاء على بالي أن أتناول بعض البطيخ البارد، لأدفع به مرارة أجدها في فمي. نعم الفكرة جيدة وحبي للبطيخ لا جدال فيه.

قمت وحين اقتربت من باب المطبخ تناهى إلى سمعي صوت خشخشة وصرير. هذه المرة كان الصوت قويا وواضحا واستنتجت للتو أنه لجرذ كبير جاء ينقب عن شيء يأكله. لا شك أنه انتهز فرصة غيابي وتسلل خلسة إلى المطبخ من النافذة الصغيرة. يقال إن الجرذان حيوانات ماكرة تشبهنا في كثير من سلوكنا، وهي غير مأمونة الجانب إذا ما أحست بالخطر، وبالنسبة لي كانت رؤيتها تجعل جسدي يقشعر خوفا وينتابني الغضب في الوقت نفسه، فهي سريعة الحركة وتملك أسنانا قارضة. لا يمكن توقع ردة فعلها إذا ما حشرت في زاوية ضيقة.

لبست حذائي لأحمي أصابع قدمي من هجوم محتمل، واقتربت من باب المطبخ ببطء وحذر شديد. دفعت الباب بطرف المكنسة ورحت أتتبع مصدر الصرير، أضأت المصباح فساد الهدوء، واقتربت أكثر من موضع حاوية القمامة. ازداد

خفقان قلبي، وازداد عرقي تصببا. كنت أفكر في جيراني، وعلى وجه التحديد من ينام مبكرا منهم مثل جاري المسن، حتما سينتبهون إلى الضجيج الذي سأحدثه بملاحقتي للجرذ المرعب الذي انتهك حرمة شقتي. كيف سيعرفون أنني بصدد ملاحقة جرذ وليس لصا! لربما تملكهم الخوف وسيهرعون إلي للتثبت من الأمر. وسأضطر إلى تقديم توضيحات وتبريرات بشأن ما حدث، وسأطمئنهم بأنه مجرد جرذ حقير وأنني قضيت عليه بمفردي بمكنستي القوية هاته.

تبا لك أيها الدخيل لماذا لا تغرب إلى مجاريك في الأسفل؟ لقد قصدت المكان الخاطئ، واخترت المجيء إلى حتفك.

توقف هذا الكائن عن إصدار أي صوت دليل على أنه مخلوق ذكي. وأنه أخذ يرقبني بحرص وصبر شديدين. كانت حاوية القمامة مغلقة جزئيا وفكرت أن الجرذ بداخلها يترقب انصرافي. وفيما أنا جامد في مكاني وغارقا في عرقي خطر ببالي أن أحكم إغلاق الحاوية وأحصره بداخلها، وهكذا أتلافى إحداث جلبة بدخولي في معركة قد تكون خاسرة فتفضحني هزيمة جرذ لي.

مددت يدي إلى الغطاء وعاجلت إحكام إغلاق الحاوية فثار الجرذ بداخلها وأحسست به يتخبط مثل طير لا يدري ماذا حل به فجأة. ها قد تفوقت عليك أيها الدخيل. ماذا عساي أفعل بك الآن بعد أن وقعت في قبضة حاويتي يا نبيه؟

هدأ سجيني أخيرا، وتخيلته يرفع ذيل الاستسلام مضطرا ويرضخ غير مختار للأمر الواقع. ولأنه حيوان يعشق الحياة راح ينتظر مصيره الذي سأبت فيه الآن وكله رجاء في أن ألين له قلبي وأعفو عنه. أغلب الظن أنني سأرمي به مع الحاوية خارجا، حيث القطط الجائعة. لن أتجرأ وأفتحها لأنهره وأزجره، وأنتزع منه عهدا بعدم تكرار دخوله إلى شقتي كاللص، والعبث في مطبخي كيفما شاء، وأن يصدر

خشخشة في حاوية القمامة فيذهب عن عيني النعاس اللذيذ. كلا لن أفاوضه ولن أساومه. سيطرح خارجا، وليبتعد عن بيتي، وليطلب رزقه في محل آخر. وكما يقال: أُتركني في حالي أتركك في حالك. هذا هو العدل. وهكذا اتخذت قراري بكل سيادة ومن دون ضغوط من أي جهة كانت. وهممت في هذه الساعة المتأخرة بحمل الحاوية لأرمي بها وبما فيها في الحاويات الكبيرة في الرصيف المقابل.

حملت الحاوية برفق فتحرك الجرذ بداخلها واضطرب، وخيل إلي أن الجرذ بدأ في إصدار صوت يشبه النحيب، هل أصابه الندم على فعلته؟ أم إنه يسترحمني لكي أعفو عنه وأطلق سراحه؟ ربما! لكن النحيب كان واضحا ولم أكن أتوهم، لم أتعجب من قدرة جنس القوارض على التمثيل وتقليد أصوات البشر، وعلى تعلم الكلام والضحك والبكاء مثلنا تماما، وأن تحس وتشعر وتتمنى الخير والشر لبني جنسها. لكن فأر الحكايات الذي أود التمثيل به الآن فأر وهذا جرذ، والفرق بينهما ليس في الحجم فقط وإنما في القدرات الذهنية أيضا، ومثلما يقال: كلما صغر الحجم زاد الذكاء وقل الغباء، والعكس صحيح.

حملت الحاوية بلطف وكان النحيب يزداد كلما حركتها، هذا النحيب أعرفه؟ مهلا ها هو ذا النحيب يتحول إلى بكاء وعويل! ثم إلى صراخ ونداء بكلمات مفهومة!

طرحت الحاوية أرضا من الفجأة. ورأيت الغطاء يلتوي قليلا وينفرج بقدر ضئيل سمح له بالقفز خارجا مغمى عليه. وبعدما أفاق نظر إلي بعينيه الصغيرتين وخاطبني بنفس يتقطع: «سيدي... ماذا تنوي فعله بصديقك المخلص!!».

(١٦)

عاد فأر الحكايات بعد شهر وبضعة أيام من الغياب...

احتفلت بعودة صاحبي ولم أصدق أنه عاد. سألني عن سبب إعادة طلاء الشقة فقلت له: «أردت كسر الروتين، ودفع بعض الضجر المتراكم». وسألته عن الألوان التي اخترت، فقال: «أعجبتني الألوان... وأنت دهان ماهر يا سيدي».

في تلك الليلة سهرنا إلى وقت متأخر، ولحسن الحظ فقد كنا في نهاية الأسبوع. تناولنا الشاي الأحمر وحلوى الشامية والكثير من البطيخ المنعش وتذاكرنا الأيام الخوالي. بدا لي فأر الحكايات خجلا من شيء ما. سألته عن سر اختفائه بعد عودتنا من رحلة الصيد تلك، ولماذا فضل العودة والتسلل مستخفيا لينقب في أكوام القمامة عن فضلات الطعام! وقلت له: «انتظرت عودتك لتشاركني عشاء السمك الذي اصطدناه معا لكنك غادرت من دون رجعة.»

تنهد بحرقة وأخبرني أسفا أنه لم يكن يقصد هجراني، ولكن مذ حدثته عن البواخر وبلاد الأجبان والفأرات الشقراوات لم يهنأ له بال، وقرر في لحظة يأس غريزي أن يقصد الميناء ويتسلل إلى داخل إحدى البواخر القادمة من هناك، وينتظر أوبتها إلى أرض الأحلام فيحظى برحلة مجانية دونما عناء.

قال لي: «إن أعمارنا نحن معشر الفئران قصيرة، لذلك من غير المنطقي أن نهدر الفرص عندما تسنح لنا إحداها.»

وقلت له موافقا: «أنت محق يا صديقي، لا جدال في صحة منطقك وصواب رأيك ورجاحة عقلك.»

وهكذا تآلفنا من جديد. لكن إحساسا بمزيج من العطف والندم تجاهه ما فتئ يكبر بداخلي حتى هممت أن أطلب منه الصفح عما بدر مني، لكنه تابع حديثه

بصوت فاتر: «صعدت إلى الباخرة العظيمة بجرأة عارمة، والتقيت فيها بالفئران من فصيلتي وأعلموني أن الباخرة لم تكن مليئة بالجبن كما أخبرتني، بل بأكياس القمح. ومع ذلك مكثت متنقلا من زاوية إلى أخرى علني أصادف فأرة شقراء... ولما أوشكت الباخرة على الرحيل بعد إفراغ حمولتها، وسمعت صوت محركاتها انتابني هلع كبير، وصرت أنتقل من مكان لآخر حتى فطن لي قط بلون التراب وطاردني بغضب وإصرار وكاد يمسك بي لولا خفتي وسرعتي. وهكذا نجوت من مخالب الهر، وغادرت الباخرة عائدا إلى المدينة أجر ذيل خيبتي.»

أمتعني حديثه، ومن أجل أن أرفع من معنوياته خاطبته بكلمات حانية: «أنت محظوظ يا صديقي بنجاتك من مخالب قط القبطان الأرعن... لكني أراك ازددت وزنا ودماثة. اسمع، لا شك أنك مررت بمغامرات شيقة ومحفوفة بالمخاطر، وخير لك أن تسترخي الآن وتطمئن، وتحكي لي مغامراتك بالتفصيل في سهرة الغد. سأتسوق من أجلك صباحا وسأحضر لك كل ما تشتهيه نفسك الرقيقة، بشرط أن تعدني ألا تغادر البيت من دون علمي.»

قال: «أعدك يا مولاي... ولكن أين اختفى سريري الملكي؟ أقصد علبة الأحذية المفروشة بالقطن الأبيض!».

وقلت له: «تخلصت منه بعد دهن الغرفة... لكن لا تشغل بالك... سأهيئ لك سريرا ملكيا آخر في الحال».

تذكرت فجأة ونحن نتجاذب أطراف الحديث قصة لا أذكر على وجه التحديد في أي كتاب قرأتها. كانت قصة موجهة للأطفال، تشبه في أحداثها ما جرى مع فأر الحكايات. فبادرته: «أتعلم يا صديقي العائد إلي قبل ساعة أن كاتبا ما لا أذكر

اسمه، يسكن في بلاد بعيدة لا أعرفها، قد كتب قصة عنك ونشرها ووصلت إلي وقرأتها في يوم من الأيام الخوالي؟».

- كتب قصة عني أنا يا سيدي؟

- ليس عنك تحديدا. ولكن عن فأر يحب المغامرات والسفر مثلك.

- مثلي أنا؟

- أقصد أنه مر بتجربة تشبه تجربتك... انتظر، أمهلني دقيقة.

قفزت من سريري إلى صندوق الكتب القديمة في الزاوية وبحثت فيه عن الكتاب. كان الصندوق مليئا بالكتب المتنوعة التي جمعتها على مر السنين. بدأت بفحصها بحثا عن القصة تلك. لكن المشكلة الأصعب في هذه اللحظة أنني لا أتذكر بالضبط اسم الكتاب. لكني تمسكت بأمل أن أجده بين هذه الكومة من الكتب.

بدأت بفتحها وتصفحها بروية، أقرأ العناوين الواحد تلو الآخر. ومر الوقت وتراكمت الكتب المفتوحة حولنا، وبعد بحث متواصل، عثرت على الكتاب المقصود. كان الكتاب متهالكا ومغبرا، وشعرت بشيء ما يجذبني نحوه. كان عنوانه: حكايات عالمية للأطفال.

فتحت الكتاب بحذر وبدأت في قراءة الفهرس، ثم صرخت: «إنه هو.. لقد عثرت على القصة أخيرا.»

كانت القصة التي أبحث عنها قصة فأر مغامر قرأتها قبل مدة طويلة ونسيتها مع مرور الزمن. وشرعت في إعادة قراءتها قراءة صامتة، ولما رأى فأر الحكايات انغماسي وغيابي الذهني قفز على كتفي وراح يتطلع معي إلى صفحات الكتاب المصفرة. وخاطبني: «هلا قرأت علي القصة يا سيدي.»

وأجبته منتبها: «هل تريدني أن أقرأها عليك؟»

وأجاب: «نعم يا سيدي، أريد ذلك.»

أغلقت الكتاب وتثاءبت، ووضعته جانبا على الطاولة الصغيرة بجنب السرير. وفيما أنا أهم بإرجاع بقية الكتب إلى الصندوق، انقدحت بذهني فكرة عبقرية في هذا الوقت المتأخر من الليل. ونطق بداخلي صوت أعرفه وخاطبني: انتهز الفرصة يا رجل!

نظرت إلى فأر الحكايات نظرة حانية وخاطبته: «طلباتك أوامر يا صديقي... ولكن هل تعدني إن أنا قصصت عليك حكاية الفأر المغامر الذي جاب البلدان والبحار وعاش تجارب ومغامرات عجيبة مع الفأرات الشقراوات والهرر الشريرة ألا تفكر في الرحيل مرة أخرى؟».

نظر إلي بعينيه الناعستين وقال بابتسامة وادعة: «بالطبع لن أرحل، أنت لا تعلم ما قاسيته في محاولتي الأولى والأخيرة، لن أفكر في تكرارها أبدا. لكنني مستعد لسماع قصة الفأر المغامر! لقد كنت أبحث عن مغامرات جديدة لاستكشافها وأعتقد أن قصتك ستكون مثيرة ومدهشة. أنا مستعد للسفر في عوالم الخيال بدل الحقيقة، ومن يدري لعلي أستفيد من عالم الخيال ما لم أستفده من عالم الحقيقة المخيب.»

أخفيت غبطتي وأجبته: «لا ريب في ذلك... ولا أشك في أنك فأر ذكي يا صاحبي.»

أمسكت الكتاب بين يدي، ومرة أخرى أسمع صوتا بداخلي يأمرني أن أنتهز الفرصة أكثر وأن أحتاط للمستقبل، فقلت: «اسمع يا صديقي، أقر بأنني أخطأت في حقك من قبل واعتذرت إليك، وأنت قبلت اعتذاري، والآن أنت تعدني ألا تهجرني كما فعلت من قبل وستبقى معي هنا لتشاركني الحلو والمر والحامض، معززا مكرما،

وبدل أن تحكي لي حكاياتك ومغامراتك أنت سأحكي عليك أنا أجمل القصص وأمتعها من هذا الكتاب ومن كتب أخرى كثيرة موجودة في هذا الصندوق الذي تراه أمامك، وسنقضي أوقاتا في غاية المتعة. ما رأيك يا صديقي؟»

بدت لي عيناه الصغيرتان مملوءتان بالثقة والاهتمام، ورأيت فمه يفتر عن ابتسامة ودودة، وقال: «أنا أثق بك يا سيدي وولي نعمتي. لقد علمتني درسا قيما حول الصداقة والتسامح، وأنا أقدر ذلك كثيرا. سأبقى إلى جانبك ونتشارك الحلو والمر، والحامض والمقرمش، لأني أحسبك صديقا وفيا ومخلصا.»

كانت ليلة لا تنسى رممت فيها علاقتي بفأر الحكايات. فرحت بردة فعله وشعرت بالسعادة لأنه قبل الاستمرار في العيش معي. وفكرت في الكتاب القديم والكتب الأخرى المكدسة في الصندوق وكيف يمكنني أن أشاركه قصصا رائعة وممتعة.

أخذت الكتاب بيميني وقلت مبتسما: «ستتاح لنا الفرصة لاستكشاف عوالم جديدة وقصصٍ مثيرة. سأبدأ بسرد هذه القصص عليك، ومع مرور الوقت، يمكننا أن نستكشف الكثير من الكتب الممتعة في هذا الصندوق، وسأستعير المزيد منها من المكتبة، وسنقضي وقتا مليئا بالمتعة والتعلم والتشويق.»

وبهذا اتفقنا على أن أبدأ سرد أروع القصص وأكثرها إثارة من الكتاب الذي كان بين يدي. ثم ننتقل إلى كتب أخرى، وهكذا دواليك. وتصورت فأر الحكايات ينصت بانتباه شديد وعيناه تتلألآن حماسا ورغبة. واللحظات العادية تتحول إلى لحظات سحرية وماتعة بيننا، حيث نغمر أنفسنا في عوالم الخيال والمغامرة. ومع مرور الوقت يتلاشى الزمان ونندمج في سرد الأحداث والشخصيات. وتملأ

الضحكات والدهشة والتعجب الغرفة، وتعلو أصواتنا وتنخفض وسط تبادل الأحداث المثيرة.

ستكون بداية لرحلة مثيرة مليئة بالمغامرات، ولم نكن نعلم يقينا ما الذي تحمله الأيام القادمة لنا، ولكن تأكد لنا أننا سنذهب إلى أقصى حد يمكن الوصول إليه في رحلتنا في عالم الخيال.

(١٧)

صباحا... أفقت على صوت طرق قوي على باب شقتي. تجمدت للحظة وأنا أستمع إلى الصوت العالي يتداخل مع نعاسي الصباحي. وإذ مضيت لملابسي أرتديها بسرعة، تداعت في ذهني العديد من الأسباب المحتملة لهذا الطرق المفاجئ... فتحت الباب مرعوبا لأجد شخصا غريبا يقف مطأطئ الرأس ومرتديا معطفا طويلا وقلنسوة تخفي ملامح وجهه. لم يكن لدي أدنى فكرة عن هويته وما الذي أتى به إلى باب شقتي في هذا الوقت المبكر، وبهذه الطريقة المفاجئة.

تبادلت التحية بتردد مع الرجل الغريب، وقلت بصوت مرتجف: «من أنت؟ وماذا تريد؟»

وأجاب بصوت هادئ وثابت: «أنا مغامر يا صديقي، وأتيت إليك لأقدم لك فرصة مثيرة لاكتشاف عالم جديد وتحقيق أحلامك.»

ترددت للحظات قبل أن أقبل على الفكرة التي يعرضها علي هذا الغريب. وتساءلت مع نفسي في حيرة كبيرة: «ما الذي يعنيه بالضبط؟ ولماذا اختارني أنا على وجه التحديد؟ وعن أي مغامرة تراه يتكلم!».

أخذت نفسا عميقا، ورأيت حيرتي واستغرابي ومخاوفي تتحول إلى ضباب يغشى المكان ثم أراه يتلاشى كلما زاد تثبتي وقلت مخاوفي وأنست بالرجل الغريب. وقررت بعد لأي أن أستجيب للتحدي الذي ينتظرني، وقلت بثقة: «أنا مستعد أيها الغريب... أعطني تفاصيل أكثر وحدثني عن هذا العالم الجديد الذي تعرضه علي.»

ابتسم الغريب وقال: «ما عليك سوى أن تجهز حقائبك وتستعد للمغامرة. سننطلق في رحلة لا تنسى، وستكون البداية لمغامراتك الخاصة.»

ونطق صوتي الداخلي: «هذا ما كنت أبحث عنه.»

أغلقت الباب وهممت بالانضمام إلى هذه الرحلة المجهولة. كنت أدرك تماما أن حياتي قد تتغير إلى الأبد، ولكن الفضول والشغف كانا يتغلبان على الخوف والشك. جهزت حقيبتي بسرعة ورفعتها على كتفي. ثم ألقيت نظرة أخيرة على منزلي الذي يحمل ذكرياتي وبدأت خطواتي في اتجاه المغامرة مع الغريب المجهول الذي سيوجهني إلى عوالم لا تصدق كما قال.

مشيت بثبات وراء الغريب المجهول، وكنت أشعر بالفرح والحماس يمتزجان بداخلي. وتبعني صديقي الوفي فأر الحكايات، الذي لم يتردد في الانضمام إلى هذه المغامرة المجهولة. أما الغريب فكان يسير في الطريق بخطوات واثقة، ولم يتوقف للحظة واحدة ليتفقدنا. كان يسير في صمت ونحن نسير من خلفه ننظر إلى محيطنا المألوف يتلاشى ويستحيل إلى مناظر غريبة ومدهشة. الشوارع المعبدة بدأت تتحول إلى مسالك في غابات خضراء ندية، والمباني العالية تحولت إلى قلاع قديمة تعانق السماء ويلفها الضباب.استمرت المسيرة لعدة ساعات، وفي كل لحظة أشعر بالدهشة والترقب. كانت هناك لغة صامتة بيني وبين فأر الحكايات، تشاركنا بها فرحة المغامرة وتساؤلاتنا حول ما سنلاقيه في هذا العالم الجديد.

وصلنا أخيرا إلى مكان مفتوح وشاسع، كانت الطبيعة تتلألأ بجمالها البري والساحر. الأشجار الكبيرة ترتفع في السماء، والأزهار الملونة تتناثر في كل مكان. ورائحة النسيم العليل تجس حواسنا، معززة شعورنا بالحياة والانعتاق. وفي أثناء ذلك، واجهنا مجموعة من المخلوقات العجيبة، التقينا بالجنيات الطائرة، والحيوانات الناطقة الغريبة، واستمتعنا بحكاياتهم ومغامراتهم في هذا العالم السحري. وفيما نحن راجلون في مسالك الغابة الساحرة، شعرت بالرغبة في الاستراحة والاستمتاع بجمال المكان. وفجأة، لاحظنا بين أشجار الغابة مبنى صغيرا يبدو كبيت قديم مهجور. بدا غريبا ومثيرا في الوقت نفسه.

توقف الرجل الغريب ونظر حوله بابتسامة مريبة وقال: «هناك مكان سحري يمكننا قضاء الليل فيه. ولكن احذرا أن تستسلما للنوم فيه.»

أحسست بالدهشة، وتطلعت إلى فأر الحكايات الذي بدا عليه الخوف والتردد. دخلنا المنزل القديم، وكانت الأجواء في الداخل مليئة بالغموض والأصوات الواجمة. كانت هناك غرفة كبيرة مضاءة بضوء خافت، ورأينا مدفأة كبيرة مليئة ببقايا الخشب المحترق. كان الأثاث قديما ومغطى بالغبار، ولكنه يوحي بشيء من الجذب والعراقة. أشعلنا نار المدفأة وقضينا الليل في الاستمتاع بالأكل والشرب وتبادل الأخبار والحكايات والتجارب، واستكشاف غرائب المكان. كان شعورنا بالترقب والتوتر ممتزجا بالإثارة والحبور.

وبعد مرور وقت طويل لم أدر كيف استسلمت لنعاس مغر وانحسرت قواي ببطء. وسرعان ما أحسست بجسدي ينغمس في بحبوحة الفراش، وتبعثرت أفكاري بين الأحلام والواقع.

واستسلمت لقوة النوم المستحكمة وسكنت في غفوة عميقة. وجدت نفسي في هذا النوم العميق أتنقل في أرض غير مألوفة، أستكشف مدنا غامضة وأواجه مخلوقات خيالية لم أر مثلها من قبل. كانت لحظات مليئة بالتشويق والإثارة، واستكشفت عوالم لم أتخيلها في يقظتي وفي رحلتي هذه. وعلى مر الساعات، تعاظم النوم العميق واستولى علي بالكامل. وتوغلت في عالم الأحلام بلا رغبة في العودة، واستسلمت لسحر هذا العالم الخيالي الذي التمع بألوان الأماني والرغبات. وتبددت الواقعية تحت سطوة غفوة عميقة، وسلبتني الأحلام من الأحداث الحقيقية. وتراقصت في هذا النوم العميق الأفكار، وانبثقت الحكايات العجيبة في عالم لا حدود له، وبقيت أنتقل من حلم إلى حلم إلى حلم، أستكشف عالم الخيال اللانهائي، مبتعدا أكثر عن واقعي ووعيي...

(١٨)

فتحت عيني بذعر مباغت... يا للحلم العجيب الغريب! منذ زمن لم أر حلما مثله!

نظرت إلى الساعة فوجدتها تقترب من التاسعة صباحا، واسترجعت الحلم العجيب الذي رأيته. كان واضحا كأنه حقيقة. وذلك الرجل الغريب؟ والعالم المدهش الذي قادنا إليه؟ ما تفسيره يا ترى؟!

كانت الغرفة مظلمة قليلا بسبب الستائر. وبعد أن فتحت النافذة أمام ضوء النهار الطبيعي قصدت الحمام لأغتسل. كان الماء شحيحا فخرجت من المغسل متذمرا. بحثت عن فأر الحكايات ليشاركني فطور الصباح لكن لا أثر له. أين اختفى

هذا الفأر غريب الأطوار؟! أم إنني كنت أحلم أيضا! كلا! لم أكن أحلم. أنا متيقن من عودته ليلة البارحة، وأننا تعاهدنا على أمر مهم. لعل الحنين جذبه إلى جحره القديم، فقد غادره لمدة جاوزت الشهر، وهي مدة زمنية طويلة جدا بمقياس الفئران والحشرات والزهور. القلق ينمو بداخلي كلما تأخر عن الظهور. هل أصابه مكروه؟ أم هرب مرة أخرى؟ أم التقمه قط جائع؟ لست أدري.

قررت قبل تناول فطوري الملكي أن أبحث عن علامات تكشف عن مكانه. تجولت في الغرفة بحثا عن أي مؤشر يدل على اختفائه المفاجئ، لكنني لم أظفر بشيء، فتناولت الفطور وحدي، وانصرفت لشؤوني.

فكرت في صندوق الكتب القديمة في غرفة النوم، وكنت قررت أن أعطي ما في حوزتي من كتب اهتماما أكبر بأن أفرد لها زاوية في خزانة ملابسي ريثما أقتني خزانة خاصة بها، عوض بقائها في الصندوق عرضة للرطوبة والأرضة.

كان الصندوق مليئا بالكتب المتنوعة، بعضها قديم ومتهالك، والبعض الآخر ما يزال جديدا ومرتبا. حصلت عليها من مصادر عدة، بعضها كان هدية من زملائي في العمل، وبعضها كنت اشتريته بنفسي في مراحل دراستي. وبعضها الآخر استعرته من المكتبة ولم أعده إلى اليوم.

أفرغت الصندوق ورأيت حشرات غريبة تخرج منه وتهرب مسرعة في مختلف الاتجاهات. بدت لي مسالمة فلم أشأ تتبعها والقضاء عليها. وشرعت في ترتيب الكتب بعد تنظيفها في رفوف الخزانة. وقررت تنظيمها بحسب الموضوعات والأنواع حتى يسهل علي العثور على الكتب التي أرغب في قراءتها. وهكذا رتبت الروايات وبعض الأشعار في الرف العلوي، والكتب العلمية في الرف السفلي. وفي الرف الأوسط وضعت مجموعتي من الكتب الأدبية المفضلة. وفور الانتهاء من ترتيبها أحسست

بنوع من الرضا وقليل من النشوة بجعلي الخزانة ملاذا مؤقتا للكتب، حيث يمكنها الحفاظ على سلامتها ونظافتها. وبعد اليوم لن يكون هناك صندوق من الورق المقوى للكتب، بل خزانة من الخشب العتيق.

نظفت بعدها المكان وتخلصت من البقايا والنفايات، وأخذت كتاب الحكايات الخرافية المترجمة لأصلحه، وبعدما أصلحته باستخدام الغراء والشريط اللاصق تركته جانبا وأخذت كتابا آخر يشبهه واستلقيت على الأريكة القرمزية لأستمتع بقراءة بعض الحكايات.

كانت حكايات الأسفار والمغامرات تعجبني، فاخترت قصة تتحدث عن عالم الاكتشاف والمغامرة. كنت أقرأ وأندمج مع أحداثها بكل جوارحي، وكلما تعمقت في الصفحات زاد انغماسي وتعمقي في عالم الخيال، وأحس بأن الحدود بين الواقع والخيال تتلاشى تماما. وفيما أنا مستغرق في صفحات الكتاب، كان الزمن يبتعد شيئا فشيئا عن واقعي. وراحت صور الأحداث تتشكل أمامي مفعمة بالحياة، حيث تتلاقى الألوان والأصوات والروائح في رحلة ساحرة من الخيال. وكلما تأملت السطور والصور، كلما تبدلت الأشياء من حولي، فأشعر بأنني أسافر عبر الزمن والمكان إلى عوالم مختلفة. حينها، اندمجت اندماجا تاما في تفاصيل القصة، وتجاهلت كل ما يحيط بي، ولم يعد لدي وعي بالزمان أو المكان الحقيقي.

هل هو كتاب سحري؟ أم إن لوثة أصابت عقلي؟ لم أعد أصدق أنني وصلت إلى لحظة شعرت فيها بالتحول الكامل، حيث تحولت الكلمات على الورق إلى أبواب تفتح أمامي عوالم غير معروفة ومدهشة. كانت القصة تمتصني إلى درجة أنني شعرت وكأنني أصبحت شخصية داخل هذا العالم الملحمي، تعيش وتتنقل في زمان

آخر ومكان بعيد. وهكذا وجدت نفسي حقيقة أعيش مغامرة عجيبة لم أستطع تصديق ما جرى معي.

وجدت نفسي في غابة صامتة، وكان الوقت صباحا قبل شروق الشمس. وفيما أنا أسير بين الأشجار الساكنة إذ تلتقط أذناي صوتا ينادي علي ويستوقفني. أنظر إلى الخلف فأرى فأر الحكايات يلحق بي ويلهث، ولما وصل عندي رماني بنظرات مليئة بالود، وعلى وجهه ملامح السعادة كأنه يخطط لشيء ما. حياني بلطف كدأبه مذ عرفته: «صباح الخير يا سيدي!» وأسأله بدهشة: «ما الذي تفعله هنا في هذا الوقت أيها اللبيب؟» ويجيبني بثقة: «خذ هذه الهدية، إنها لك!» تتملكني الدهشة والفضول وآخذ الهدية بين يدي، وعندما أفتحها أجد بداخلها خريطة ملفوفة بإحكام. أنظر في الخريطة، وأقرأ فيها رسالة تدعوني للمغامرة! مرة أخرى؟! ما الذي يجري معي؟!

لم أستطع مغالبة الدعوة فأبديت على وجهي ابتسامة عريضة، وقلت بلهفة: «هذه دعوة للمغامرة يا صديقي...حسنا، أنا مستعد دعنا ننطلق في هذه المغامرة، ولن أسألك إلى أين!». وهكذا، ننطلق سويا في رحلة مليئة بالمغامرات المثيرة والتجارب الجديدة، نتقاسم الأماني، ونختبر حدودنا ونكتشف الجديد والغريب في عالم خلاب.

وأسأل فأر الحكايات: «هذا رائع حقا، أنا متحمس للغاية لهذه المغامرة. لكن إلى أين ستقودنا مغامرتك؟»

وأراه يبتسم ويجيب باطمئنان: «إلى بلدة قديمة عجيبة. ولا تسألني أكثر.»

أطلقت بدوري ابتسامة ظريفة وأعطيت إجابة متحمسة والتزمت الصمت. وكان يبدو واضحا أن هناك شيئا مثيرا ينتظرنا في تلك البلدة الغابرة.

كانت الشمس ترتفع تدريجيا، وأمامنا كانت الطبيعة تتزين بمناظر خلابة وألوان زاهية. وفي أثناء ذلك كنا نغتنم الفرصة ونتحدث عن أحلامنا وتطلعاتنا للمغامرة التي تنتظرنا هناك. واصلنا السير في ظلال الأشجار حتى بلغنا البلدة المجهولة التي بدت لنا كأنها خرجت توا من قصص الخيال. كانت الشوارع ضيقة، لكنها مبلطة بأحجار على قالب واحد بلا نتوءات أو أخاديد بارزة. اصطفت على جنباتها مبان عتيقة أضفت جوا ساحرا على المكان. وكانت هناك ساحة تتوسطها نافورة عجيبة، حواليها الأكشاك في شكل سوق بديعة، تبيع المصنوعات اليدوية، والتحف القديمة، والمأكولات، ومختلف الأدوات. ومن مكان قريب كانت تصلنا أصوات الطبول والنايات. والضحكات كانت تملأ الأجواء كأن البلدة في عرس بهيج.

يقودني مرشدي من على كتفي بحماس عبر الشوارع الضيقة ويروي لي قصصا عن تاريخ البلدة ومعالمها المميزة. كنت أتعجب من معرفته الواسعة بالمكان، فسألته عن سر ذلك فلم يجبني. وفيما نحن كذلك إذ بنا نكتشف في أحد الزوايا الخلفية بوابة قديمة مفتوحة قليلا، وكان ظاهرا أنها تؤدي إلى ممر مظلم. ويهمس فأر الحكايات في أذني: «ماذا لو دخلنا هناك؟» وأجيبه بابتسامة مليئة بالفضول والتشويق: «أنا أثق فيك يا صاحبي.. دعنا نستكشف ما وراء تلك البوابة ونرى ما الذي ينتظرنا هناك!»

ندخل البوابة عبر الممر المظلم حيث الأنوار خافتة والجدران مغطاة بالأعشاب والنباتات المتسلقة. نسمع أصواتا غريبة تأتي من الأعماق. نتوغل بحذر في السرداب أكثر فأكثر. وفجأة نصل إلى غرفة واسعة خافتة الإضاءة. ينتصب في أمامها جسم غريب يشع متوهجا. كانت مفاجأة مذهلة بالنسبة لي، ونظرت في

صاحبي الفأر بعينين مليئتين بالإثارة والاندهاش. وقلت بتعجب: «ما هذا الذي تراه عيوننا؟!»

ويجيب فأر الحكايات بابتسامة وضاءة: «هذا هو الكنز الحقيقي للمغامرة يا رفيقي! دعنا نكتشف ما يمكن أن يوجد هنا ونتذوق سحر هذا المكان.»

ونشرع في استكشاف ذلك الجسم المشع ونكتشف فيه أسرارا مدهشة. فقد كان هذا الجسم الغريب يمتص منا كل تعب ونصب، وفي المقابل يمنحنا طاقة لا حدود لها. وواصلنا سيرنا وتجوالنا لنكتشف المزيد من الأعاجيب.

كانت المغامرة تزداد تشويقا وإثارة مع كل خطوة لنا في هذا العالم الرحب العجيب. وتستمر الرحلة لساعات طويلة، نتجول في الدهاليز السرية ونكتشف كنوزا قديمة وألغازا محفوفة بالمخاطر تستعصي على الحل. كان يوما مليئا بالتجارب الشيقة واللحظات التي لا تنسى. وفي ختام المغامرة، وجدنا أنفسنا أمام بوابة أخرى تؤدي إلى الخارج حيث بدأ حلول الظلام بعد غروب الشمس.

كانت رحلة رائعة حقا! وكنت ممتنا لفأر الحكايات على هذه الهدية العجيبة. وخاطبني فأر الحكايات بابتسامة كبيرة: «هل استمتعت بالمغامرة يا سيدي؟» وأجبته بكل رضا: «بالتأكيد! كانت مغامرة رائعة ومثيرة فعلا. أنا شاكر لك هديتك الرائعة...».

(١٩)

اختفى فأر الحكايات وخان ثقتي مرة أخرى... يا لجلل خيبتي فيه!

ها هي ذي عطلتي السنوية تدنو من نهايتها، وكما يقال: لكل بداية نهاية. أيام الصيف تمضي سريعة وبطيئة في الوقت نفسه. وأنا الآن أتساءل: هل استفدت منها

أم أنها خيبت أملي؟ فجل ما استطعت أن أحققه فيها من أنشطة مختلفة ذات نفع وفائدة أني غيرت طلاء شقتي، وقرأت رواية بوليسية وفصولا من كتاب الحكايات العجيبة، وسبحت في البحر عدة مرات، واصطدت بعض السمك. أما بقية الأوقات فقضيتها بين النوم، وقضاء بعض السهرات بوسط المدينة، والتبضع، والتسكع في الشوارع منفردا مثل كلب أجرب، ومشاهدة التلفاز، وسحق البعوض..

أما تلك الأحلام العجيبة وهلوسات القيلولة ومنتصف الليل فلم أجد لها تفسيرا بعد. أفكر في شراء كتاب لتفسير الأحلام ليساعدني في فهم معاني الرموز والأحداث في أحلامي الأخيرة لعلني أجد فيه بعض التأويلات المسلية.

قررت اليوم أن أقصد المدينة العتيقة حيث المكتبات والوراقات المتوارثة أبا عن جد للبحث عن كتاب تفسير الأحلام. وفي الواقع، كانت نيتي أن أمر على مركز البريد من أجل التأكد من صب الراتب الشهري.

وجدت المركز مكتظا بالجيوب الخاوية مثلي فعلمت أن الراتب دخل الحساب. سحبته كله بفرح روتيني بالرغم من عناء الانتظار الممل في الطابور. كانت الساعة تقترب من منتصف النهار، وبعد أن دسست الأوراق المالية البالية في جيبي وتحققت من فعل ذلك بالشكل المطلوب، عرجت على مكتبتي الأثيرة لمالكها السبعيني بحسب تقديري لعمره.

دخلت المكتبة ملقيا التحية من دون أن أسمع ردا من صاحبها العجوز. لم أنزعج من عدم رده على تحيتي، ليس لأن العجوز ثقيل السمع، وليس بسبب انشغاله بقراءة كتابه كالعادة، وإنما لعدم يقيني من أنني ألقيت عليه التحية أصلا.

بحثت في الرفوف المغبرة أمامي فوقع نظري على بعض العناوين ذات الصلة بتفسير الأحلام والروحيات. تصفحت بعضها واقتنيت أرخصها ثمنا. فالأمر لا

يستحق أن يدفع فيه الكثير. انتقلت بعدها إلى رفوف الروايات والقصص، وكان من عادتي أن أمسح العناوين بنظرة سريعة، ثم أتوقف وأدقق في تلك العناوين التي تلفت نظري أكثر ويهمني أمرها، كانت روايات الجيب بنسخها الأنيقة تستهويني، فهي زهيدة الثمن وصغيرة الحجم، ولا تأسى عليها إن حدث وفقدتها يوما ما.

عدت إلى المنزل في حدود الواحدة زوالا. وضعت أرغفة الخبز الساخن على طاولة المطبخ، ووضعت النقانق وفخذ الدجاج في الثلاجة، أما حزمة الكتب ورزمة الأوراق فألقيت بها فوق الأريكة. وبعدما اغتسلت وضعت على النار مقلاتي العتيقة وكسرت فيها بيضتين. وبعدما نضجتا أضفت قطرات من الزيت للمقلاة ووضعت فيها حبات النقانق. كانت وجبة سريعة أتبعتها ببعض العصير المنعش. نعم كان عصيرا منعشا، ولكنه لم يكن صحيا في نظر الأطباء، فهو مكون من مواد اصطناعية والكثير من المحليات التي تؤثر سلبا على الصحة. ولكنه يبقى منعشا بالرغم من ذلك.

وضعت رزمة الأوراق في الدرج، وعدت إلى حزمة الكتب، أخذتها وقعدت على أريكتي القرمزية ومضيت أقلب في صفحات كتاب تفسير الأحلام. كان الكتاب يحمل عنوان "حكمة الأحلام، كيف تفسر وتستغل رسائل اللاوعي". كان غلافه جميلا وكان يحتوي على تعليمات بسيطة ومنهجية لتفسير الأحلام والرؤى. وعندما شرعت في قراءته بدأت أناقش أحلامي الغامضة وأقارنها بما ورد فيه.

مع مرور الوقت، بدأت أتعمق أكثر في فهم الرسائل التي تنقلها أحلامي. اكتشفت أنها تعبر عن رغباتي الخفية ومخاوفي وتوجهاتي الشخصية. كانت هذه التجربة مثيرة ومفيدة، حيث بدأت أفهم نفسي فهما أعمق وأكتشف جوانب

غامضة من شخصيتي. وفهمت أن تطبيق ما جاء في كتاب التفسير على حياتي اليومية من شأنه أن يؤثر في اتخاذ قراراتي وفهم عواطفي فهما أحسن.

أخذت غفوة بعدها، على أريكتي القرمزية الناعمة، ومن عجب أن دخلت في حلم عجيب آخر.

رأيت فيما يرى النائم أن الأريكة تحولت إلى أريكة طائرة. وراحت تحوم في الهواء وتنطلق بسرعة كسحابة تسوقها الرياح، وأنا ممسك بها بشدة. انطلقت بي في رحلة مثيرة تحت سماء مليئة بالغيوم المدهشة. وفي الأسفل كانت المناظر الطبيعية تبدو خلابة وسحرية، من جبال شاهقة، وأنهار زرقاء جارية، وغابات خضراء شاسعة. وفيما أنا أستمتع بالإثارة والجمال الذي يمتد أمام ناظري، لاحظت وجود قرية صغيرة في فجوة غابة عظيمة. فقررت أن أهبط هناك، وطلبت من الأريكة الهبوط في مكان حددته لها فلبت طلبي سريعا. هبطت في مكان متوار عن الأنظار، ونظرت إلى القرية من بعيد وفاجأتني هندسة مبانيها الفريدة وشوارعها العجيبة. قطعت نهرا صغيرا من فوق جسر حجري قديم ودخلت القرية فوجدت الناس يتجولون في الشوارع ويقضون أشغالهم في عجلة من أمرهم. بدأت أستكشف القرية ولقاء السكان المحليين الودودين، الذين قابلوني بنظرات مريبة لم أستطع تبين معناها. وفيما أنا أسير في القرية المدهشة، استوقفني شيخ مسن ذو لحية بيضاء طويلة وعينين حكيمتين. كانت طلته تبعث على السكينة والاحترام.

اقترب مني الشيخ ببطء وبدا أنه يحمل سرا ما، وخاطبني بصوت هادئ وعميق: «أيها المغامر الشجاع، أنا حاكم هذه القرية، وحري بك أن تغادرها قبل حلول الظلام.»

أردت أن أعبر للشيخ عن استغرابي فسألته بفضول: «لماذا يجب علي مغادرة القرية؟ وما الذي يحدث بعد غروب الشمس؟»

تبسم الشيخ وأجاب: «أيها الغريب، هذه القرية تحمل سرا غابرا وخطيرا. فعندما يحل الظلام، تستيقظ القوى الشريرة التي تختبئ في أعماقها. وإذا بقيت هنا بعد الغروب فستعرض حياتك للخطر.»

استوعبت كلام الشيخ وشعرت بالقلق يتسلل إلى قلبي. كنت مغرما بجمال القرية وأهلها الودودين، لكنني أدركت أن هناك أمورا أكبر وأكثر تعقيدا تحدث في الخفاء. ولست أدري من أين أتتني الشجاعة وتوجهت إليه قائلا: «أرجوك يا سيدي... أريد أن أساعدك في مواجهة القوى الشريرة. لا يمكنني ترك هذه القرية الجميلة تواجه الخطر وأنا فيها.»

نظر الشيخ إلي بابتسامة متزنة وقال: «لكن يجب أن تكون مستعدا، فمواجهة تلك القوى تتطلب شجاعة وقوة خارقة للعادة فهل أنت مستعد لقبول هذا التحدي؟»

وأجبته على الفور: «نعم أنا مستعد... أريد أن أحمي هذه القرية وأن أتصدى للشر الذي يحيق بها.»

بدأ الشيخ يتحدث بصوت هادئ: «حسنا، لكن هذا التحدي لن يكون بالأمر الهين. لديك الكثير لتتعلمه ولتتحمله. لكن سأوجهك إلى المكان الذي يمكن أن تجد فيه القوة اللازمة لمواجهة هذا الشر.»

تقدم الشيخ وأنا أتبعه بثقة وترقب. لست أدري كيف اقتنعت بأنني المنقذ المنتظر، وأنني مستعد لإنجاز هذه المهمة الغامضة والمحفوفة بالمخاطر. لم أكن أعلم بالتحديات التي تنتظرني في طريقي إلى الحقيقة الحالكة المختفية خلف هذه

القرية المدهشة. ولما جاء وقت الفعل بعد الكلام مشينا في طريق ضيق محاط بالأشجار السوداء والصامتة. كانت حدة الهواء تزداد مع كل خطوة تدنينا من المكان الذي وعدني به الشيخ.

وصلنا أخيرا إلى قرية أخرى قديمة ومهجورة في مكان مفتوح. أعطتها الأبنية المتهدمة والشوارع المظلمة مظهرا منعزلا ومرعبا. كانت الأوراق الجافة متناثرة على الأرض، وكأنها تعزف ألحانا لسرب الغربان الناعقة من فوقنا.

توقف الشيخ وقال: «هنا ستكون نقطة البداية».

وراح يحدق في البناء القديم الذي يعلو الساحة الواسعة، وخاطبني: «من هنا يجب أن تستعيد القوة الضائعة منك.» مشيت نحو البناء القديم بحذر واستعداد لأي طارئ. وعندما دخلته عثرت بداخله على مدخل آخر يفضي إلى سرداب قديم مليء بالكتابات والألغاز.

كانت جدرانه تحمل رموزا غامضة وكتابات قديمة تشير إلى قوة خفية تستتر هنا. بدأت أحل الألغاز والتغلب على التحديات التي تواجهني. وكنت أشعر مع كل خطوة أقترب بها من القوة المفقودة بالطاقة تتدفق في عروقي. وكنت أحس بالقوة تتعاظم بداخلي كلما تقدمت خطوة في الغرفة الملغزة.

بلغت أخيرا القوة المفقودة مجسدة في كرة بلورية تشع بالضوء الأبيض تدور في وسط الغرفة. جذبتني الكرة المشعة نحوها بقوة ساحرة لم أستطع مقاومتها. وضعت يدي عليها، فشعرت باندفاع هائل من الطاقة يملأ جسدي كله. وأحسست بالثقة والشجاعة تملآن كياني، وصرت أرى الأشياء من حولي تنقاد لإرادتي وحدي وكأنني أصبحت مسيطرا على الطبيعة كلها.

خرجت من البناء القديم وأنا أحمل القوة المستعادة بداخلي. وأحسست بابتسامة الشيخ من تحت لحيته الكثة وهو يرى التغير الحاصل في عيني. وقال بوجه متهلل: «لقد استعدت قوتك الآن يا بطل... عد إلى القرية وواجه الشر المنتظر بكل شجاعة.»

أعربت عن شكري للشيخ على إرشاده لي ودعمه، ثم يممت وجهي إلى القرية مجددا وفي قلبي إصرار وعزيمة على مواجهة ما ينتظرني بعد غروب الشمس. وتصاعدت المشاعر المختلطة بداخلي، إذ كنت متحمسا لمعرفة حقيقة ما يحدث وفخورا بقوتي المستعادة. وفي الوقت نفسه كان داخلي يفور بحمم من التوتر والقلق والمخاوف التي لا تزال تراودني.

ومع غروب الشمس، سيبدأ الفصل الأخطر والأكثر تحديا من رحلتي في مواجهة الشر الذي ينتظرني في ظلام الليل المريع. فماذا سيحدث؟ وهل سأكون قادرا على حماية القرية ونفسي من هذا الشر القاتل؟

مع اختفاء قرص الشمس، تجمدت القرية في هدوء مخيف. الظلام ساد المكان، ولم يتبق سوى أصوات الرياح وأصوات الحشرات الليلية تتهادى في الهواء. وانطلقت في استكشاف الشوارع الضيقة بحذر شديد حاملا بيدي جذوة من النار، وفي قلبي أحمل القوة المستعادة.

كانت الأحياء المظلمة والأماكن الخلفية تحمل غموضا لا يرحم، وخوفا لا يقاوم. وفي زاوية من الزوايا الضيقة، لاحظت تجمعا من الظلال الحالكة. توقفت للحظة وترقبت، وبدا واضحا أن هناك شرا ينتظرني. اقتربت بحذر، وهناك وجدت مجموعة من المخلوقات الخبيثة تتجمع حول أحد المباني المهجورة. كانوا يتلون صلواتهم بأصواتهم الشريرة، ومنهم تنبعث رائحة الفساد والدمار.

لم يكن لدي وقت للتردد. رفعت جذوة النار ونفخت فيها من القوة المستعادة بداخلي وأطلقتها بكل قوتي فاستحالت النار إلى ضوء شديد السطوع. رأيت الشرور تتبعثر في الهواء في صورة ذرات من الرماد المظلم. وواصلت على هذا المنوال، مواجها المخلوقات الشريرة بجرأة وثبات. تواجهت معهم واحدا تلو الآخر، وكلما تغلبت على كيان شرير، اندمجت قواه مع قوتي المتجددة. وبدأت أشعر بالشجاعة تملأ قلبي وروحي، والأمل يعود للقرية المهددة. وفي النهاية، بقيت وحدي في ميدان المعركة، بعدما تمكنت أخيرا من هزيمة الشر المتربص بالقرية وطرده منها إلى الأبد.

ومع طلوع الفجر، خرج السكان إلى شوارعهم. وهتفوا بالفرح والامتنان لجهودي وشجاعتي. وعادت القرية إلى حياتها الطبيعية بفضلي أنا، وعاد الأمل للسكان الطيبين. كانت ردود أفعالهم مليئة بالامتنان لجهودي وشجاعتي في مواجهة الشر وإعادة السلام لقريتهم. وتعالت هتافات الفرح والتصفيق في الأجواء، وكانت الابتسامات تزين وجوه السكان الممتنين.

وفيما أنا أبتعد عن ساحة الاحتفال منتشيا بانتصاري، توجهت إلى أريكتي القرمزية، ولكن صدمني المشهد المروع. كانت الأريكة محترقة تماما، والدخان يتصاعد من بقاياها المتفحمة. أصبت بصدمة كبيرة، وأنا أراقب بقايا الأريكة التي كانت تعني لي الاسترخاء والراحة. وتملكتني مشاعر الحزن والفقدان.

تذكرت في تلك اللحظة العصيبة القوة التي استعدتها والشجاعة التي أظهرتها في المغامرة السابقة. وقررت ألا أدع هذا الحادث يحطم روحي وإرادتي. وبدلا من ذلك، أصررت على رفع رأسي والنظر إلى المستقبل. فالأريكة مجرد جسم مادي، ولكن القوة والشجاعة تكمن في داخلي ولا يمكن أن تُحرق، بل هي التي تحرق ما يقف في وجهها.

وبالرغم من شعور الحزن الذي انتابني لفقدان أريكتي، أدركت أنني أكبر من ذلك، فأنا بطل يملك القدرة على التغلب على الصعاب، ومساعدة الضعفاء، وإحداث تغيير إيجابي في أحوال العالم الفاسد، وأن ثمنا يجب دفعه في سبيل تحقيق ذلك.

(٢٠)

كان حلما عجيبا آخر ذاك الذي رأيته البارحة... ما الذي حل بك يا عقلي وتفكيري!

يبدو أن مطالعتي في كتاب الحكايات الخرافية قد استولى على تفكيري كله. كانت مشاهد الحلم واضحة في ذهني، وكأنني عشتها فعلا. بطبيعة الحال، لم تكن الأحداث تجري كما سردتها هاهنا، فقد أضفيت عليها من خيالي الكثير من عناصر التشويق ليبدو حلما مثيرا في شكل قصة أدبية عجيبة. ولكن الحدث الذي أفجعني رؤية أريكتي تحترق من دون سبب واضح.

بدأت عيناي تتأقلمان مع الواقع مع إحساس بالدوخة من أثر النوم مساء. كانت الساعة تقترب من الرابعة عصرا، وفكرت في تحضير فنجان قهوة لطرد هذا الخمول وتنشيط حواسي. وفيما أنا أعد القهوة كنت أشعر بالنشاط يعود تدريجيا إلى ذهني. وعدت بتفكيري إلى الأحداث العجيبة التي رأيتها في حلمي، بدءا من طيران الأريكة بي ومرورا بالبلدة الغامضة وصولا إلى المفاجأة باحتراق أريكتي. وتساءلت عن دلالات كل ذلك؟

حملت فنجان القهوة إلى غرفة النوم ولذت بكتاب تفسير الأحلام علني أجد فيه أجوبة تريحني، فالأمر لا يحتمل الانتظار. أمسكت الكتاب ورحت أبحث في

فهرسه عما له علاقة بتفاصيل الحلم. بحثت في موضوعات الأسفار والطيران واحتراق أثاث البيت وغير ذلك، وعثرت على تفسيرات متضاربة. لكنني ركزت على احتراق أثاث البيت، وعلى الأريكة خاصة، فوجدت هذا التفسير:

«إن رؤية احتراق الأريكة في الحلم قد ترتبط بالمشاعر المتنازعة والتوتر في حياتك اليومية. قد ترمز الأريكة إلى موضع الراحة والاسترخاء. وعندما تحترق، فإنها تشير إلى عدم القدرة على الاستمتاع بالراحة والاسترخاء بسبب التوتر والصعوبات التي تواجهها في الحياة. وقد يكون الحلم أيضا تعبيرا عن الضيق والقيود التي تشعر بها. قد يكون هناك شعور بالحرقة الداخلية أو الغضب الكامن الذي يحتاج إلى التعبير عنه. وقد ترمز الأريكة التي تحترق أيضا إلى تحولات جذرية أو تغييرات كبيرة في حياتك، يمكن أن تكون مفزعة أو مثيرة للقلق.»

حسنا... مفهوم. يبدو هذا التفسير مقبولا ومعقولا. وماذا بعد؟ بم سيفيدني معرفة ذلك. في الواقع، ربما أكون شخصا مغرما بالأحلام العجيبة بسبب رغبتي اللاواعية في الهروب من هذا الروتين القاتل، والانعتاق والانطلاق في عالم بلا قيود ولا منغصات. أو هي رغبتي المكبوتة في السفر والترحال في عوالم الخيال بحثا عن ملاذ آمن.

وفي المقابل أعلم ألا شيء يتغير بمجرد التفكير في تغيير لون العالم الرمادي المحيط بي إلى ألوان زاهية، تلك لعمري أمان باطلة، ولست أنا من يدعي امتلاك القدرة على تغييرها بأي حال من الأحوال.

لكنني مثل معظم الناس الحالمين أملك ذاتين: واحدة تحيا عالمها الواقعي الضيق كالصراط محاصرة بالروتين اليومي، والأخرى تبحث عن فرصتها لترفرف في

العالم الفسيح للخيالات والأحلام، ليس هربا وسلبية، بل لاتخاذها منطلقا للتحول والانطلاق نحو مستقبل أقل تعاسة.

ولذا فمما يرضي هذه الروح المتوثبة دوما أن نقرر تحويل روح هذه الأحلام إلى واقع مقبول، حتى نصبح، بمفردنا أو برفقة من يشاركنا أحلامنا، مسيرين لحياتنا الخاصة، غير مكترثين بالمحبطين والمثبطين من حولنا.

(٢١)

سأرجع اليوم إلى سجني.. إلى روتين عملي بالمكتبة العامة. يا لليوم المشؤوم!

عدت إلى عملي إذن، في مكتبة هذه المدينة الساحلية التي تشيع فصل الصيف لتستقبل بعده فصل الخريف. وفي صباح كهذا، أعبر الحديقة العامة فأرى الأطفال يلعبون ويتصايحون، مستغلين ما تبقى من عطلتهم الصيفية الطويلة قبل عودتهم إلى مدارسهم. وما عدا صورة الأطفال المعفرين في حيويتهم وصخبهم، كان يتبين لي مع كل خطوة أخطوها نحو المكتبة أنني لست الوحيد الذي يبدأ يومه بروح خالية من الحماس والحيوية.

تستقبلني المكتبة برائحة أجوائها التي افتقدتها شهرا كاملا. أقصد مكتب المستخدمين لأجل التوقيع، أبادلهم التحية، وأصافح من أعرف ومن لا أعرف من زملاء، ويتفحص بعضنا بعضا. نتبادل بعض الأسئلة المألوفة عن الأحوال والمستجدات. والجميع يزعم أنه في أحسن حال.. إنها الأقنعة نفسها يا سادة.

يمر اليوم الأول ثقيلا ومرهقا في انتظار العودة التدريجية لروتين العمل المعهود. لاحظت أنه على عكس المدينة التي تعكف على التحضير لاستقبال فصل

الخريف بتغيير ألوان أوراق الشجر، يبدو الزمن هنا بالمكتبة كأنه قد تجمد. الكتب المنسية على الرفوف مصطفة ومتزاحمة، ورائحة المكان تشعرني بذلك الإحساس الذي تلتقي فيه كثير من المشاعر المتضاربة.

بعد عودتي التدريجية لروتين العمل، يصبح من اللازم علي أن أضبط أمور حياتي على هذا النظام اليومي. وفي غضون ذلك أجد نفسي في حالة إحباط شديد لعدم استفادتي من عطلتي السنوية بالشكل الذي رمته. كان مرورها كمرور سحابة صيفية. لم أفلح في أن أستغلها كما يهوى الخاطر، في سفر طلبا للاسترخاء، أو في سياحة داخل البلاد أو خارجها مثلا. وعودتي إلى روتين العمل بهذه السرعة، بالرغم من أهميته لي، لا تخفف من شعوري بالأسى والانقباض.

في الواقع، ليست هذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها بهذا الشعور المحبط. فدائما ما كانت الأيام القليلة التي أمضيها بعيدا عن العمل كأنها أوهام سرعان ما يطبق عليها الزمن بسرعة هائلة. وعندما أنظر إلى الوراء، يبدو لي أن اللحظات التي قضيتها في الراحة كانت مجرد لحظات مرت بسرعة البرق. لا أستفيد منها بالقدر المأمول.

أحاول أن أفهم سبب هذا الشعور المتكرر، هل يرجع ذلك لطبيعة عملي الذي يتطلب الكثير من التكرارات والحركات الآلية والرتيبة، مما يجعلني بحاجة متزايدة إلى وقت أطول من الاسترخاء لأستعيد حيويتي. أم إن السبب يرجع أيضا إلى عدم قدرتي على التفرغ تماما في أثناء العطلة، حيث يظل القلق والحيرة يؤثران على استمتاعي بأوقاتي الخاصة.

ومع ذلك، أدرك أن الحياة لا تتوقف عند باب المكتبة، وأنه يجب علي أن أجد طرقا للاسترخاء والتمتع بأوقاتي ولو في خارج أوقات العمل المكثفة. قد أقرر مثلا

تخصيص بعض الوقت لنفسي يوميا، حتى وإن كانت فترات قصيرة، أمارس فيها هواياتي المفضلة، أو أقضي وقتا ممتعا مع الناس. قد يكون هذا الإجراء بسيطا، ولكنه قد يساعد في تخفيف الضغوط والشعور بالانغماس التام في روتين العمل. كما يمكنني أن أضع خطة للاستمتاع بعطلتي بصورة أحسن في المستقبل، فأختار وجهتي بعناية وأخطط لبرنامج ثري بالأنشطة الممتعة والاسترخاء الذي يجدد طاقتي ويشحذ حواسي وذهني.

في النهاية، علي أن أتذكر أن الحياة ليست مجرد عمل وروتين، بل هي أيضا عبور لرحلة مليئة بالتجارب والمغامرات. قد يكون فاتني الكثير في الماضي، لكن لا يمكنني السماح للحياة بأن تمضي بسرعة الأرنب البري من دون أن أعيشها بكل ما تقدمه من جمال وفرص. بالرغم من اقتناعي بأننا نحيا واقعنا في سجن متعدد الطبقات، أولها سجن الجسد وآخرها سجن الحياة نفسها، وبينهما سجون كثيرة مثل سجن البيت، وسجن الوظيفة، وسجن المدينة، وسجن البلد... وسجون أخرى معنوية أكثر صعوبة في التحرر منها.

أمضي في عملي على الوتيرة نفسها لبعض الوقت، ومع انحسار الصيف واقتراب فصل الخريف وعودة الأطفال للمدارس، يبدأ ذهني في الانتعاش أكثر وأخرج شيئا فشيئا من جو الرتابة وأدخل في مرحلة الجد والانهماك في تأدية واجباتي على أكمل وجه، سواء كنت راغبا في ذلك أم مضطرا، حتى أحمي نفسي من تيار العبثية الجارف إلى حيث يبغي هو. في هذه اللحظة التأملية النادرة على المرء أن يفكر مليا وينظر في الخواتيم والعواقب، قبل أن ينتهج منهجا في الحياة لا يناسب فلسفته فيها.

«فلسفتي في الحياة» ... يا لها من عبارة رنانة ومفعمة بالدلالات! هل أؤمن فعلا بأن الحياة فرصة مواتية لاكتشاف الذات وتحقيق الطموحات والأحلام وليست مجرد تكرار للروتين اليومي؟ ربما. لكن ما أنا مقتنع به أيضا أن العمر يمضي، ومن واجبي في حق نفسي قبل كل شيء أن أتعلم كيف أقدر كل لحظة وأستفيد منها، وأن أكون ممتنا للفرص التي تأتيني، وأن أسعى لأكون إيجابيا وملهما، فأثر إيجابي واحد يمكن أن يغير حياة شخص من النقيض إلى النقيض.

أعتقد بأن النجاح يأتي من الالتزام والعمل الجاد، وأن التحديات هي فرص للتجدد والتطور. وأؤمن أيضا بأن الحياة مغامرة مليئة بالمفاجآت والفرص. لذلك، سأظل أتأمل فيها وأبحث عن الجوانب الجميلة والإيجابية في كل حين.

في النهاية، أعتقد بأنه علينا أن نعيش حياة مميزة وأن نبذل قصارى جهدنا لتحقيق أهدافنا وطموحاتنا. وسنصل فقط عندما نتبع فلسفتنا في الحياة، ونسعى جاهدين لأن نصبح أحسن نسخة من أنفسنا ونحقق ما نصبو إليه.

أغلقت الكتاب ووضعته جانبا، ونظرت إلى الساعة. وغمغمت مع نفسي: «يا لها من نصائح قيمة!» وتمنيت للحظة أن أكون شخصية قصصية متخيلة، يكتبني كاتب حالم كهذا الأديب الفيلسوف.

عدت إلى عملي في المصلحة، لأستكمل تصوير مخطوط تاريخي عتيق جدا. كانت مهمتي تقتضي صبرا وحرصا شديدين. ولذا كنت أتعامل مع المخطوطات بعناية فائقة، كحال من يتعامل مع كنوز نادرة يجب المحافظة عليها من الإتلاف. كان تقليب أوراقها البالية بحذر كبير ووضعها على آلة التصوير الكبيرة بحذر أكبر عملا مجهدا بحق. ولأن طبيعة عملي كانت تقتضي الكثير من الصبر والأناة، فقد كنت أختلس وقتا للراحة بين الفينة والأخرى، أتناول فيها مشروبا ساخنا أو باردا،

أو أتابع قراءة جريدة أو مجلة أو كتاب أختاره بطريقة عشوائية. أو أقف مقابلا للنوافذ الزجاجية العملاقة متفرجا على الرائحين والغادين في ساحة المكتبة.

كانت المكتبة العامة فسيحة الأرجاء، وكنت أغادر مكان عملي وأقصد مكتبة الموظفين والعمال حيث الكتب الحديثة والمعاصرة برائحتها المميزة. كنت أشعر بأن قراءة الحكايات والقصص تمنحني الهدوء وراحة البال بعيدا عن ثقل العمل وأعبائه. وعلى وجه التحديد، كانت روائع الأدب الكلاسيكي تستهويني، ولا سيما تلك الطبعات الشعبية الأحدث، المعاد نشرها في شكل كتيبات صغيرة الحجم في جزء واحد أو في عدة أجزاء. أما المجلدات القشيبة بورقها الصقيل فلم أكن أكترث بها بسبب حجمها ووزنها الزائد الذي يجبر القارئ على ملازمة مكان واحد.

كان شغفي بقراءة الأدب الكلاسيكي معينا لي في السابق لأكتب على منوال كتابات الأدباء والمؤلفين العظام. كانت روحي تنجذب إلى عوالم تلك الروايات والقصص الخالدة، حيث جمال اللغة ومتعة الأسلوب وروعة الوصف. وكنت أحاول جاهدا أن أكتب قصصا تشبه تلك التي كتبها الكتاب الكلاسيكيون الذين أعجبت بهم. بيد أني أدرك تماما أن ليس لي ما يضاهي عبقريتهم الفذة، غير أن طموحي كان يدفعني دوما لتجربة الكتابة والبحث في سر خلود أدبهم، حيث تتجسد الصراعات الداخلية والأخلاقية للإنسان، وتتجلى تلك المشاعر الإنسانية الجياشة في صراعاتها الأزلية.

كانت الكتابة، كشأن القراءة، سبيلي الوحيد للابتعاد عن ضجيج هذا العالم، والتقاط جوهر الأزمنة والأحداث التي عشتها أو قرأت عنها. لم يكن ذلك مثاليا، بالطبع، فقد كنت أستند إلى خيالي البسيط وتجاربي الحياتية الضئيلة لأضفي جاذبية وأصالة على كلماتي التعيسة. ومهما يكن فقد تأكد لي أن الإبداع

والكتابة ليسا مجرد هواية ونزوة عابرة، بل هما نور ينير دربي، وبعد ينقلني إلى عوالم أخرى، وهو هدف يجعلني أفكر في العودة إلى ممارسة الكتابة بعد انقطاع عنها دام عدة سنين. بيد أنني لم أعد أكتب منذ التحقت بهذه الوظيفة، ولم يعد القلم يطاوعني لأسباب أجهلها. كانت أوقاتا صعبة مررت بها، فقد كنت أشعر بالعجز والإحباط لما أمسك القلم لأكتب شيئا فأتوجس خيفة من عجزي الكامل كأنما شلت يدي.

أستحضر مجددا كيف بدأت رحلتي مع الكتابة. كنت مولعا بتسجيل ملاحظاتي وأحلامي في أوراق منفردة أو في دفتر صغير. ومع مرور الوقت تطورت قدراتي وازداد تعلقي بها. ومع انشغالي بالوظيفة وبأمور أخرى تراجعت قريحتي، وابتعدت تدريجيا عن هوايتي المحبوبة. كنت أحاول مرارا وتكرارا العودة، لكن القلم لم يكن ليطاوعني كما كان عليه الحال في الماضي. لم أعد قادرا على وضع الكلمات معا بالأسلوب الذي اخترته، والسلاسة التي اعتدتها. وما عاد ذهني المكدود بقادر على إنتاج أفكار تستحق عناء التأليف.

ومع ذلك بدأت أحس بأن شغفي القديم بدأ يستفيق بداخلي بأن أصير كاتب قصص أو روايات يقرأ له الناس ويعجبون بما أكتب كما أعجب أنا الآن بأعمال هؤلاء الأفذاذ. وأن أرى كتبي تلتحق بهذه الكتب في هذه الرفوف، وأن يقرأني القراء فيستمتعون بما كتبته كما أستمتع أنا بأعمال الكتاب الرائعين الآخرين. فهل من سبيل إلى تحقيق ذلك؟

أول الطريق الطويل خطوة، وبداية الغيث قطرة كما يقال. لكن الطريق إلى أن تصبح كاتبا مشهورا ليس بالطريق المنبسط والممهد. ولو أن ليس هناك من سبب لليأس قبل التجريب. فلأجرب حظي إذن ولأعمل بجد. أليس العمل الجاد والتفاني

هما المفتاحان لتحقيق الحلم؟ فلأجرب ولأقرر أن أجدد العهد مع الكتابة، ولأبدأ رحلتي نحو تحقيق هدفي الذي بدأت فكرته تختمر في عقلي من الآن.

أعلم أن الطريق إلى النجاح في عالم النشر ليس بالسهولة التي أتوقعها. حتما سأواجه تحديات كبيرة في زمن صعب، لكنني لن أستسلم قبل أن أبدأ. سأستمر في المحاولة، وسأستغل عملي هنا بالمكتبة من أجل تقديم أعمالي للنشر والمسابقات الأدبية، من يدري؟ عسى أن يحالفني الحظ والنجاح يوما ما...

أفكر في أن أضع خطة لكتابة قصة حياتي، كما عشتها شخصيا، ومع كثير من الخيالات الجامحة والبهارات ستكون قصة رائعة. ولكن من الواجب بدءا أن أقرأ الكثير من الكتب والأدبيات المختلفة لاكتساب المزيد من المعرفة والأساليب والإلهام. وعلي أن أكتب يوميا وأبدأ في التعلم من تجاربي، والإنصات إلى آراء الآخرين في كتاباتي. سأقرأ الكتب النقدية والتعليقات قراءة بناءة، وأستفيد منها لتحسين أسلوبي وفهم احتياجات القراء، خصوصا الكسالى منهم، وأنا منهم.

أدرك أن الاستمرار في التعلم وتطوير مهاراتي مطلب جوهري. لذلك سأطلع أيضا على ما ينشر من أعمال حول شروط الكتابة الإبداعية والأدبية وتحسين مهارات التحرير. وكذا حضور اللقاءات التي تنظمها المكتبة مع كتاب محترفين للاستفادة من نصائحهم وخبراتهم. وأملي مع مرور الوقت أن تتحسن كتاباتي ويتلقاها من يقرأني باستحسان كبير. وأن ألقى عما قريب أول عرض لنشر كتابي الأول.

(٢٢)

حل فصل الخريف أخيرا، وبدأ الجو في الاعتدال، وتساوى مقدار الليل والنهار ...

كنت أرى أوراق الأشجار تتلون باللون الذهبي، والبرتقالي، والأحمر. ومع هبوب رياح خفيفة تراها تتناثر شاحبة فتغطي الأرض ببساط من الألوان المبهجة. في هذا الزمن المتلون، أردت أن أستجمع قواي وأبدأ في تحقيق هدفي في أن أصبح كاتبا روائيا في يوم من الأيام.

انبثق الأمل بداخلي مع بداية هذا الموسم الجديد، وبعد سنوات طويلة منذ التحاقي بهذه المدينة العتيقة. لست أدري ما الذي تغير هذه المرة فاستيقظ العفريت في قمقمه. لكنني أرغب بشدة في الابتعاد عن الروتين اليومي وتوسيع مساحة سجني، بالسعي نحو تحقيق هدف مختلف على صلة بشغفي القديم، يشعرني بأنني مخلوق له هدف في الحياة.

أرى فصل الخريف فصلا ساحرا، يحفز على العمل والتأمل بخلاف فصل الصيف بحرارته ورطوبته الخانقة. وكنت أرى في ألوان الطبيعة وأصوات الرياح وتغيرات الجو مصدرا لإثارة الخيال والتشجيع على الكتابة. وكنت، كلما أخذت لحظة للتأمل، أدرك مدى أهمية متابعة هذا الحلم وعدم الانقطاع، حتى أرى كتاباتي مطبوعة في صفحات رواية ملموسة.

كان سقوط أوراق الأشجار ملهما، أنظر إليها وأشعر بأن هناك فرصة جديدة لبداية جديدة تنتظرني. ستكون خطوات صغيرة أخطوها نحو تحقيق هدفي المنشود. أبواب تغلق، وأبواب أخرى تفتح. سأقضي الساعات الطويلة يوميا عاكفا

على أوراقي أكتب وأشطب وأمزق. سأنغمس في عوالم خيالية خاصة بي، وأخلق شخصيات مثيرة، ونهايات مفتوحة أو مغلقة. سيملأ الإحساس بالإبداع قلبي وعقلي كلما أخذت خطوة إضافية في كتابة باكورة أعمالي. وسيمنحني التقدم الذي أحرزه يوما بعد يوم إحساسا بأنني مخلوق له غاية من وجوده. وسوف يأتي ذلك اليوم الذي تكتمل فيه الرواية وتنشر في طبعة جذابة. وسأكون قادرا على مشاركة عالمي وشغفي مع الآخرين عبر كلماتي. وقبل أن أصل إلى ذلك اليوم، سأستمر في الكتابة والتعلم والتطور، نشوان بالرحلة التي بدأتها ومتطلعا إلى المستقبل الذي سيأتي بتحقيق حلمي في أن أصبح كاتبا لا يشق له غبار.

بدأت هذه الأفكار تستهويني فيما أنا قاعد قبالة رفوف الكتب المرتبة. متخيلا نسخا من كتابي بعد طبعه ونشره وسط الكتب في هذه الرفوف. لا أخفي سرا أنني شعرت بنوع من الزهو الخافت يتحرك بدخيلتي كطفل صغير يحلم. أخذت نفسا عميقا وأحسست بالانتشاء، وفكرت في أنني استرجعت شيئا من ذاتي فقدته زمانا في مدينة بلا إحساس. وها هي ذي الثقة تستقر في قلبي بأن كتابي الحلم سيكون عملا مميزا، ومفعما بالإلهام لمن يقرأه. لكنني أعلم أن المهمة لن تكون سهلة أبدا، فكبار الكتاب أنفسهم مروا بمحنة اجتياز مرارة مرحلة الخطوات الأولى قبل أن يتذوقوا الطعم الحلو للنجاح.

من أجل ذلك، وقبل أن أخوض في هذه الرحلة الأدبية الشاقة والشيقة، أدرك تماما أنه يتحتم علي أن أتعلم المزيد حول فن الكتابة الإبداعية. ولذا رحت أبحث عن مرجع يكشف لي أسرار كتابة القصص المتخيلة. وبعد عدة جولات بين الرفوف وقعت على كتابين يتحدثان عن تقنيات الكتابة الأدبية وفنونها. اخترت أحدهما لمؤلف معروف يملك باعا طويلا في الكتابة والنشر. قررت استعارة الكتاب

لبضعة أيام لأكتشف وأستفيد من نصائح مؤلفه، وتجربته الثرية في هذا الميدان الخطير.

عدت إلى مكان عملي متأبطا الكتاب وروايتين من أدب السيرة الذاتية، واستكملت بقية يومي في التصوير وأمور أخرى، ثم غادرت المكتبة العامة مترجلا. كان الجو ينذر بمقدم أمطار الخريف الأولى، فسارعت إلى أحد الأكشاك واشتريت كيسا بلاستيكيا لحفظ الكتب من البلل. ولم يمض وقت طويل حتى بدأت أشعر بنسمات الهواء البارد تلامس وجهي، وتزداد قوتها شيئا فشيئا ليتبعها رذاذ المطر الساقط علي وعلى الرصيف الجاف المغبر، فتنتشر رائحة التراب المبتل وتتصاعد فتصل إلى أنفي ممتزجة برائحة دخان المركبات، والمخابز، وعطور النساء المسرعات بأحذيتهن ذات الكعب العالي.

كانت شوارع المدينة في مثل هذا الوقت كبيت النمل المنتشر، وما كان يثيرني أكثر ويرجع بذاكرتي إلى سنوات الشباب الأولى منظر فتيان المدارس من مختلف الأطوار، وهم ينتشرون في الشوارع فرادى وجماعات في مختلف الاتجاهات بعد نهاية الدوام، راجعين إلى بيوتهم الدافئة بكثير من الفرح.

وسط هذا الجو المختنق بأنفاس المارة ودخان العربات، قررت أن أغير مساري قليلا وأنحو جهة الحديقة العامة في مركز المدينة، حيث الأشجار بأوراقها التي بدأت تغير ألوانها، معلنة وصول فصل الخريف بكل بهاء. إنه المكان الذي لطالما أحببته لتنزهي والاستمتاع بوجه من أوجه الطبيعة الحية.

وصلت إلى الحديقة ووجدتها هادئة وخالية من الناس تقريبا، مما أضفى على الجو أطيافا من السكينة. لم تكن الأمطار قوية، لكنها تبلل من يديم الوقوف تحتها.

احتميت بشجرة من ذلك النوع دائم الخضرة، واكتفيت بالإنصات إلى صوت المطر وهو يتساقط بلطف على الأشجار والأرض.

كانت لحظات السكون والاتصال بالطبيعة تجعلني أشعر بالانسجام والسلام الداخلي. وكنت أعيش تلك اللحظات بوعي وبلاوعي، مستغلا هذه الفرصة لأفكر في مسار حياتي وتطلعاتي، والتفكير في الأمور الجديدة التي أرغب في تحقيقها في المستقبل القريب.

عندما قررت العودة إلى المنزل، مستمتعا بتناول المكسرات المملحة، كان المطر قد توقف تماما. وأشعرتني برودة الطقس الخريفي بذلك الشعور المنعش والامتلاء الروحي الجميل. كنت ممتنا لتلك اللحظات البسيطة والجميلة التي أضفت علي شيئا من راحة البال والهدوء، ولتلك الأمطار الخفيفة التي غسلت بعض أدران نفسي قبل أن تغسل الشوارع والأسطح وريش الحمام. وأدركت أن الاستمتاع باللحظات البسيطة في حياتنا هو ما يجعلها حقا ثرية ومميزة.

بعد يومين كنت أتممت قراءة كتاب «كيف تكتب روايتك الأولى». قرأته بشغف كبير، واكتشفت الكثير من الأمور، وارتأيت أن ألخص أهم النصائح التي يمكن أن تعين الكاتب المبتدئ، وسجلت ملخص النصائح في دفتر ملاحظات جديد لأعود إليه عند الحاجة بعد إرجاع الكتاب للمكتبة.

ورد في الكتاب بأن كتابة رواية جيدة يعتمد على الإلمام بعدة جوانب فنية، مثل الحبكة، وبناء الشخصيات، ونظام السرد، وتوليد عوالم متخيلة.. ولكن، هل بإمكاني أن أتقيد بهذه الضوابط كلها كما هي واردة هنا؟ في الواقع لدي شك في ذلك، فأنا رجل يكره الضوابط والقيود، لولا الرغبة التي تحدوني للانطلاق في رحلتي في عالم الكتابة والتأليف. بالطبع، أفهم تماما ما يعنيه أن أكون روائيا مبتدئا عليه أن

يتبع التوجيهات. ولكن ما يقصده مرشدو الأدب أن الإبداع والروح الحرة في عملية الكتابة ليست مكبلة بالقيود الصارمة أو القوانين الثابتة، وهذا ما أومن به أنا أيضا.

في رأيي أن الإبداع يجمع بين الحرية والقيود. فمثلما يتقيد الكاتب بقواعد ملزمة كيلا تضيع الرسالة ويتيه القارئ، أرى أن من واجبه أيضا أن يلتزم بإبراز فرادته وأسلوبه الشخصي. فليست القوانين الأدبية والنصائح إلا إرشادات توجه ولا تقيد. ومن جهتي أرى أنه يمكنني في ضوء قناعتي هاته أن أحطم القوالب وأتجاوز الحدود المألوفة، وأن أجرب أفكارا وأساليب جديدة. فالروح الحرة والتجديد هي مفتاح الإبداع الحقيقي.

أقنعت نفسي بهذه الأفكار البديعة والمشجعة، وأنه يمكنني أن آخذ بالنصائح والتوجيهات وتكييفها بما يتناسب وملكاتي الإبداعية ورؤيتي الخاصة. فتجربتي وتميزي هي ما يميز روايتي المأمولة ويجعلها فريدة من نوعها. ولذا قررت أن أتبع شغفي وخيالي، وأكون منفتحا على الابتكار والتغيير في رحلتي الإبداعية المنتظرة.

(٢٣)

يا للأمسيات المتشابهة ما أثقلها! كأنما الحياة آلة ناسخة...

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشر ليلا عندما أويت إلى فراشي بعد أن كددت ذهني وحواسي في قراءة الكتاب وتلخيصه. وعموما فقد استفدت كثيرا من تلك النصائح والإرشادات، ولم يتبق أمامي إلا أن أعمل بها وأحاول تطبيق ما أمكن تطبيقه منها، وأضيف إليها شيئا من اجتهادي وتجاربي القليلة في الحياة. وأن أقرأ

الروايتين المعارتين من المكتبة حتى أستفيد منهما في توسيع آفاقي وتعزيز مهاراتي في التعبير. لكن الأمر الذي يؤرقني هو الموضوع الذي سأكتب فيه أو عنه.

أتذكر فجأة طفولتي الغابرة فيخفق قلبي، وينتابني ذلك الشعور الغريب الذي يمتزج فيه الإحساس بالتحدي والحماسة والقلق في الوقت نفسه. كانت الفرصة مثيرة ومخيفة في آن واحد. وتسابقت الأفكار في عقلي، لكن فكرة واحدة كانت تناديني لتكون الموضوع المثالي لروايتي البكر.

غلبني النعاس فنمت على تلك الفكرة، وفي منامي رأيت حلما جميلا، كعادتي عندما أنام في حالة تمتزج فيها مشاعر القلق والتوتر والحنين. وجدت نفسي في عالمي الحلمي الأثير حيث تجلت لي ذكريات طفولتي بوضوح لا يصدق. وجدت نفسي مفتوح العينين في عالم رأيت فيه الأطفال الصغار يلعبون من حولي. وكنت طفلا صغيرا مثلهم في هذا الحلم، يستكشف العالم بكل فضول وحماس. وبدت لي تلك اللحظات بريئة وبسيطة تغمر المكان والزمان. وتذكرت كيف كنت ألعب مع أصدقاء الطفولة في ذلك الزمن البعيد، وكيف كنا نركض ونضحك بلا هموم، تماما كما كنت أفعل في طفولتي الحقيقية.

كانت الذكريات في هذا الحلم تتدفق تدفقا طبيعيا ودافئا. كل حدث من حياتي الطفولية كان يأتي إلي كأنه لوحة متحركة تعيد إحياء تلك اللحظات البعيدة. ورأيت نفسي فجأة في فناء بيتنا القديم، ورأيت أمي قاعدة في ركن دامس فلم أستوضح معالم وجهها. ورأيت أبي، ورأيت إخوتي، وكانوا جميعا يضحكون ويبتسمون، فأحسست بذلك الشعور بالأمان والحنان يملأ دخيلتي.

وفيما أنا أستمتع بجو البساطة والبراءة في هذا العالم الطفولي، سمعت صوتا من خلفي يناديني باسمي. أدرت وجهي إلى مصدر الصوت فوجدت جدي واقفا عند

عتبة الباب معتمدا على عصاه. وخاطبي بصوته الأجش: «لماذا رجعت يا ولد.. غير مرحب بك هاهنا.. لتعد من حيث أتيت». ورأيته يدير لي ظهره ويبتعد بخطوات سريعة ويتلاشى وسط الضباب. حاولت اللحاق به لكني أحسست بخطواتي ثقيلة مثل الصخر الأصم فسقطت على الأرض. وسبقني الوعي فاستيقظت فزعا لأجد نفسي على الأرضية حقيقة، وإحساس بالمرارة يغمرني.

كان السكون مخيما. نظرت إلى المنبه فوجدت الساعة تشير إلى الثالثة والنصف فجرا. يا له من وقت أستفيق فيه! أحسست بجفاف في حلقي فنهضت متثاقلا إلى المطبخ لأشرب قليلا من الماء. كان جسدي منهكا، لكني أحسست بصفاء ذهني بالرغم من الأسى الذي حمله لي حلمي بجدي وغضبه علي. تغلبت على خمولي وفتحت صنبور المياه فسال الماء باردا ومنعشا. ملأت الكأس بالماء على الطاولة وانتظرت صفاءه ونزول ما احتواه من شوائب غير مرئية، وشربت ثلاثة أرباعه وشعرت بالرطوبة والانتعاش في حلقي، لكن تلك الأفكار لم تزل تدور برأسي.

عدت إلى غرفتي ودخلت في فراشي الدفيء، ورحت أراجع تلك الأفكار الغريبة، ومحاولا إيجاد وسيلة لفهم الحلم ومعناه العميق. أحسست بحزن حقيقي يملأ قلبي لا أذكر متى شعرت بمثله من قبل. رميت الغطاء جانبا وأشعلت المصباح وقمت إلى أريكتي. لست أدري من أين أتتني تلك الرغبة الجامحة في أن أكتب شيئا. فتحت الدرج وأخذت أوراقا وقلما. أخذت نفسا عميقا، وبدأت أكتب. بدأت أفرغ بحرية مشاعري وأفكاري، محاولا العودة بواسطة الكتابة إلى ما مضى من حياتي وسط عائلتي التي تركتها في تلك القرية الجبلية البعيدة. كانت محاولة لمحاكاة ذلك الحلم وفهم ما يمكن أن يعنيه لي.

توقفت للحظة وركزت على ذاتي المحبطة، وغلبتني العبرة عندما تذكرت صورة جدي ودعوته لي بأن أعود من حيث أتيت. أخذت أسترجع تاريخ طفولتي الحقيقية وأسقطته على الأحداث والمشاعر التي عشتها في الحلم. بدأت الصورة تتضح بجلاء، وكأن الأفكار تتشكل وتتجسد أمامي. كانت هذه اللحظة لحظة تحول واضح في نظرتي لتاريخي المنسي، فلم أعد أرى الحلم جزءا من الماضي فحسب، بل فرصة لفهم أعمق لذاتي وتوجيه حياتي الآن نحو الأمام. قد تكون الرحلة مضنية ومعقدة، ولكنني كنت مستعدا لاستكشافها وفهمها اليوم قبل الغد. ولتكن موضوعا مثيرا لروايتي المأمولة.

في هذه اللحظة من الصمت والتأمل، أدركت أن الحياة ليست مجرد مجموعة من الأحداث الفردية، بل هي شبكة متواشجة من العواطف والأفكار والعلاقات. بدأت أدرك أن الحلم قد جاء ليذكرني بأن أبقى وفيا لجذوري، والماضي الذي تركته خلف ظهري. لكنه أيضا تحفيز لي لبناء مستقبل مشرق وأكثر تفاؤلا. وبالفعل فقد بدأت أشعر بالأمل ينبعث من داخلي، وامتلاك القوة لتحقيق تلك الأحلام والتحديات التي تنتظرني.

لكن من أين أبدأ حكايتي؟ وكيف أرويها عليكم يا سادتي؟

يقال إن أصعب الأمور بداياتها، وفيما يخصني أعتقد أن أصعب الأمور تكمن في فهم ذاتي وتحليل مسار حياتي الغامض. أتذكر نصيحة صاحب الكتاب الذي قال فيه إن بناء حكايتك يبدأ من داخلك، بالاستفادة من إعادة اكتشاف ماضيك، وآمالك، وأهدافك. يجب أن تكون البداية متأملة وواعية. وبالنسبة لي، لا تكفي هذه الكلمات لوصف الشعور الكامن بداخلي. يمكن أن تكون بداية سرد حكايتي تحديا

كبيرا، ولكن يمكن تجاوز هذه الصعوبة وأن أجعل منها نقطة انطلاقي في عالم الكتابة الرحيب.

في هذا الخضم من الأفكار تذكرت فجأة فأر الحكايات، ذلك الفأر الناطق العجيب، وتذكرت أنني أفتقده. كان وجوده يؤنسني وكان يلهمني ويجعلني أنشرح وأضحك. بل لعله أعاد إلي إحساسي بذاتي. كان مرآتي التي أعدت بها اكتشاف بعض الخبايا في نفسي. ليته يرجع لأحدثه عن مشروعي الحالي، وأبوح له عن رغبتي في أن أكشف للعالم عن سري العظيم الذي أخفيه، وأن أعبر عنه في شكل قصة أرويها بلا حواجز، ولا قيود، ولا خوف كبير...

لست أدري كم مضى من الوقت مذ غادر للمرة الثانية ولم أعد أراه، هل مر أسبوعان أم ثلاثة أسابيع؟ لا أذكر. لكنني أنتظر أوبته بين الفينة والأخرى، خاصة أن فصل الشتاء يقترب. أنا متيقن من أنه سيفكر في العودة إلى البيت والأكل الدافئ حينما يحس باقتراب موعد البرد القارس والصقيع.

(٢٤)

انتصف فصل الخريف.. وفأر الحكايات لم يعد.

بدأت كتابة قصتي بلا تخطيط مسبق. كنت أخط كل ما يتبادر إلى ذهني بالكلمات والجمل التي أعرفها، وبحسب قدراتي اللغوية والأسلوبية، مستمدا من ذكرياتي المثارة مشاهد وأفكارا وشخصيات تنبض بالحياة. أعجبتني فكرة استخدام شخصية رئيسية أو بطل يعكس شخصي وحقيقتي، وانغمست في سرد الأحداث ونسج القصة بعناية وتركيز واحتراس.

كنت أقعد لساعتين أو ثلاثة في غرفتي الهادئة بعد العشاء، غارقا في عالم الخيال الذي أبدعته. وكنت أكتب وأحذف وأعدل، محاولا تجاوز التحديات والاستمتاع بلحظات الإلهام. كانت الكتابة تجربة مذهلة ومثيرة، ووجدت في حرية التعبير متعة عظيمة، تفوق متعة صيد السمك.

على هذا النحو، وبين لحظات الشغف والتأمل، استمرت رحلتي في عالم الكتابة والكذب الحلال، وعلمت أن الإبداع لا يأتي من القيود والضوابط، بل ينبع من القلب المتوثب والروح المتحررة.

ولأن المسرات قد تأتي أحيانا مجتمعة، وكما توقعته، عاد فأر الحكايات في ليلة خريفية عاصفة ولم ينتظر حلول الشتاء... عاد كما عاد في المرة السابقة، منكسرا مثل حظه وحظي من الحياة.

خاطبته مظهرا الفرح: «مرحبا بعودتك في بيتك يا فأر الغياب... هل أنت بارد أم جائع؟»

كان مبتلا ورأيته يرتعد من البرد في زاوية المطبخ ولم يكن يقوى على الكلام. أخذت فوطة جافة ودثرته فيها، ولما استرجع بعض الدفء خاطبني: «شكرا لك يا سيدي... لقد أنقذتني مرة أخرى.»

أحسست بالرغبة في الضحك: «حقا يا منحوس! حسنا... اسمع، لا أريدك أن تتكلم. المهم أنك عدت، ودعني أحضر لك شيئا تأكله ثم نتحدث.»

بدا لي جسده هزيلا وضعيفا. ولعله كان يعاني عارضا صحيا ما. وخاطبت معدته الجائعة: «من حسن حظك أن حساء الخضار الذي أعددته للعشاء ما يزال دافئا.»

ملأت له صحنا صغيرا بالحساء، وأضفت إليه قطعا من الخبز المحمص وقطعة من الجبن، ووضعته بالقرب منه وراح يأكل بنهم. أعجبني المشهد وغمرني شعور إنساني دافئ.

وخاطبته مرة أخرى: «هل ترغب في المزيد؟»

- نعم زدني... يعجبني حساء الجبن بالخبز المحمص.

قال ذلك ثم توقف فجأة وطأطأ رأسه.

علمت أنه شعر بالخجل. وبادرته وأنا أغادر المطبخ إلى غرفتي: «اسمع... أعلم ما تفكر فيه، وأنا لا ألومك بسبب أنك تغادر متى شئت وترجع متى أحببت. أنت لست هرا أو كلبا.. أنت فأر حر.»

في هذه الليلة الخريفية العاصفة كانت الأمطار تهطل بغزارة شديدة، والرياح تعصف بقوة، وكان صوت المياه المتدفقة في الشارع هادرا كأنها الوديان الجارية.

عدت إلى فأر الحكايات فوجدته يغط في نوم عميق متدثرا بالفوطة الدافئة. رفعت الصحن من أمامه وغسلته بحذر كي لا أوقظه. تأثرت قليلا لكن قلبي لم يفرح بعودته كثيرا... فلم أكن لأتأمل بقاءه معي أكثر من يومين أو ثلاثة ريثما يستعيد عافيته، ويتحسن حال الجو، ثم يرجع إلى عالمه الخاص.

مضت الليلة بسلام بعد أن توقف هطول المطر في حدود منتصف الليل وحل صباح جديد. لم أكتب شيئا الليلة الماضية فقد قطع الجو العاصف علي حبل أفكاري، وكذلك مجيء فأر الحكايات. دخلت المطبخ وأنا أتوقع مغادرته المكان الذي تركته فيه. لم يخب ظني فقد وجدت الفوطة في مكانها أما هو فغادر إلى حيث لا أدري. لم أتأسف ولم أشعر بالحزن، إنها طبيعته الفأرية ولن تتغير أبدا. لكن مجيئه

المفاجئ، كما رحيله المفاجئ، كان يذكرني دائما بأننا في أحيان كثيرة نفتقد أشياء جميلة في الحياة دون أن ندرك قيمتها حتى تختفي.

قررت الاستمرار في رحلتي مع الكتابة، وألا أدع هذه الملهيات تثني من عزيمتي. بأعماقي متاهات كثيرة يجدر بي أن أستكشفها، وأن أنقل ما يمور به رأسي من أفكار ومشاعر على هذا الورق الأبيض المحايد. وعلي أن أكون حذرا مثل الصياد الحذق، وأن أنتهز الفرص الثمينة، وأن أفطن للأماكن غير المتوقعة التي يمكن أن يأتي منها الإلهام.

لكن فأر الحكايات كان مريضا ومرهقا. وددت لو يفتح لي قلبه ويخبرني بحاله، وماذا جرى معه في غيبته الثانية تلك. ربما حدثته نفسه مرة أخرى بتكرار محاولة الارتحال إلى بلاد الأجبان السعيدة، وكان مصيره الإخفاق الذريع في هذه المرة أيضا.

(٢٥)

نظرت من خلال النافذة في هذا الصباح البارد فرأيت آثار العاصفة بادية على الشوارع. الأوساخ والأتربة الرملية متراكمة هنا وهناك، وبعض الأشجار متكسرة بفعل الرياح القوية التي غيرت وجهة الأشياء، وأحدثت فوضى في المكان.

ارتديت معطفي الشتوي قبل الأوان. ولما هممت بالخروج بعد تناول فطوري الصباحي المعتاد، وفيما أنا منشغل بلبس حذائي سمعته يناديني بصوته القاطع: «صباح الخير يا سيدي.»

فاجأني ابن الفأرة، ولما تحكمت في انفعالي ودهشتي خاطبته بهدوء: «أراك ما زلت هنا؟».

وَرَدّ علي: «لم أغادر البيت يا سيدي، كل ما هنالك أني اشتقت لجحري القديم، فقلت أتفقده وأقضي فيه بقية ليلتي.»

- هل تركت هذا الدفء وانتقلت إلى جحرك؟! ... وكيف حالك اليوم؟

- بخير يا سيدي، كان الحساء لذيذا ومفيدا. وأريد أن أخبرك بما اعتزمت عليه.

- تفضل قل ...

- قررت ألا أغادر البيت أبدا وسأبقى بجوارك.

- حقا! أتعني أنك ستبقى هنا؟

- نعم، يا سيدي. لقد وجدت السعادة في هذا البيت.

- صدقا!

- أدركت أن الصواب ليس في البحث عن مكان جديد، بل في بناء وتحسين المكان الذي نجده.

تظاهرت بالمفاجأة، وقلت: «أعتقد أنه قرار صائب ورائع. صحيح أنني لا أشعر بأن هذا المكان هو موطني الحقيقي. لكن يمكننا معا أن نجعل منه ملاذا يملأه الإبداع والتفاؤل.»

وتابعت بحماس: «اسمع... بجعبتي مشروع أرغب في تحقيقه وأنتظر منك المساعدة.»

- بالتأكيد، يا سيدي. سأساعدك في كل ما تحتاج إليه... ثق بي.

شكرته ممتنا لوجوده بجانبي، وتابعت: «سنكون فريقا رائعا وسنحقق الكثير معا.»

- وأنا أيضا ممتن لكرمك يا سيدي... لن أنسى اهتمامك بي ما حييت.

تركت فأر الحكايات بالبيت وأسرعت الخطى لألتحق بعملي. كنت متأخرا فسلكت طريقا مختصرا بين الزقاق الضيقة، وفي طريقي كنت أتجنب البرك المائية والأشياء المتناثرة هنا وهناك. رأيت الناس يحاولون التأقلم مع هذه الظروف الجوية الطارئة، وبينما كان البعض يشتكي ويظهر التبرم بانسداد البالوعات، كان آخرون يظهرون الفرح والحبور استبشارا بالغيث النازل ويحمدون الخالق.

كانت الأجواء محملة برائحة الأرض المبتلة والهواء النقي. وقد أضفت هذه العوامل مجتمعة نوعا من الحيوية على وجوه الناس. ومع أنني متأخر عن العمل إلا أنني قررت زيارة المقهى الصغير الذي يقع في الزاوية القريبة من المكتبة، لأخذ فنجان من القهوة الساخنة قبل بدء الدوام. لم أكن ممن يتخذ التأخر عن العمل عادة له، لكن اليوم يوم استثنائي بسبب عاصفة أمس.

لم أتعجل شرب القهوة، وآثرت أن أحترم طقوسها الخاصة. ولم أشأ أن أحملها معي في فنجان من الورق المرسكل، بل قعدت مطمئنا في مقعدي أستمتع برائحة المكان وجلاله. رحت أراقب الناس الذين كانوا يتدافعون لتجنب البرك، ولاحظت عمال التنظيف يحاولون فتح البالوعات وتنقية ما علق بها من أوساخ ورمال. ومن حولي كنت أسمع التعليقات الساخرة لرواد المقهى في موضوع تأخر المسؤولين ولامبالاتهم في إنجاز مثل هذه الأشغال التي تسبق حلول فصل الشتاء. كان هذا التقصير يتكرر كل عام، ولذلك فالحديث عنه لم يكن بداعي إيجاد الحلول بقدر ما كان مناسبة للتنفيس، وطعنا في كفاءة من هم في مناصب المسؤولية.

من حسن حظي في هذه الحياة أن ظفرت بعمل في مكان مغلق، دافئ شتاءً وبارد صيفا. كانت وظيفتي في المكتبة وسط المدينة حيث كل الخدمات متوفرة وقريبة، مواتية في حالة الظروف الجوية المتقلبة.

وكان من حسن حظي أن ظفرت بعمل لا يستدعي مخالطة الناس كثيرا. ولكن، كما يقال، دوام الحال من المحال. فقد تقرر تحويلي من مصلحة التصوير إلى مصلحة أخرى بالمكتبة هي مصلحة الإعارة. وسأشرع في عملي الجديد بعد افتتاح الجناح الجديد المخصص لأدب الأطفال والناشئة بدءا من دخول العام الجديد. هذا القرار اتخذته إدارة المكتبة بناء على طلب كنت تقدمت به قبل مدة لنقلي من مصلحة التصوير لأسباب صحية، وأيضا لحاجة مصلحة إعارة الكتب إلى موظفين لاستقبال القراء في الجناح المذكور، فتقرر تحويلي إليه مؤقتا.

في الواقع لم يفاجئني القرار فقد كنت أتوقع الموافقة على طلبي بعد أن قضيت مدة طويلة في مصلحة التصوير، وأن الوقت قد حان لتغيير النشاط، بسبب أن هذا العمل يمكن أن يكون مجهدا ومتطلبا للتركيز والدقة، وقد يكون مضرا بالبصر إذا لم تتخذ الاحتياطات اللازمة للتخفيف من إجهاد العين والعضلات. ولكن ما لم أفهمه هو سبب جعله تحويلا مؤقتا وليس دائما. في كل الأحوال ما يزال أمامي بعض الوقت لتتضح الأمور أكثر.

إذن عما قريب، سأحمل أمتعتي وأرحل، بعد سنوات قضيتها في الطابق الأرضي. وسأرتقي إلى طابق أعلى ألتقي فيه بزملاء جدد ووجوه جديدة كل يوم. ويبدو أنَ هذا التحويل قد وصف بالمؤقت ربما لإعطائي الفرصة لتجربة الوظيفة الجديدة، وتحديد مدى تناسبها مع مهاراتي. ويمكن أن يمنحني هذا فرصة لاختبار مجال جديد قبل تقرير ما إذا كان التحويل سيكون دائما أم مؤقتا. لكن المعضلة أنني رجل كتوم، أهوى العزلة والانفراد والهدوء. فكيف سأنتقل فجأة إلى عمل في مجال يتطلب التفاعل، والتواصل الدائم مع الآخرين؟؟

(٢٦)

مضى أسبوع كامل وفأر الحكايات لم يفكر بعد في مغادرة شقتي، ولم يهجرني هذه المرة.

رأيت وزنه يزداد، ولغته تتحسن أكثر، وذكاءه يرتفع حتى صار يناقشني في مسائل تتطلب تفكيرا عميقا.

في هذا المساء فيما كنت منكبا على أوراقي خاطبني قائلا: «يكاد الأسبوع يمضي ولم تخبرني ماذا تكتب؟ وعم تكتب؟ هل هو سر؟ لا أخالك تكتب عني!»

وأجبته: «ليس عنك يا نرجسي.»

- ما معنى نرجسي؟

- لا تشغل بالك. أنا بصدد استكمال الفصل الأول من روايتي، وسأقرأه عليك حالما أنهيه لتعطيني رأيك فيه.

- ومتى تستكمل هذا الأول؟

- اسمه الفصل الأول... سأنهيه عما قريب.

- حسنا، ليلتك سعيدة إذن.

- على رسلك... لا تذهب.

بعد مرور نصف ساعة صحت قائلا: «وأخيرا أنهيته... أين أنت يا مساعدي الرائع؟»

نظرت حولي ورأيته يغط في نوم هادئ... يا لسرعة نومك! هل أوقظه؟

تركت فأر الحكايات منغمسا في نومه، وانغمست أنا في فراشي أطلب النوم أيضا. أحسست بدفء الفراش يتسلل إلى زوايا جسدي، وغمرت قلبي راحة عظيمة وأنا أخطو أولى خطواتي في عالم الكتابة الروائية العجيب.

أطفأت مصباح السرير واندمجت في الظلام الهادئ الذي غمر الغرفة. كانت الساعة تشير إلى وقت متأخر من الليل، ولكن الحماس منعني من التسلل إلى عالم الأحلام بسهولة. إذ انطلقت الكلمات التي كتبتها تشاغب في مخيلتي، وتتراقص أمامي كلآلئ في سماء الليل الصافية، وكأنها تترجاني لأختار منها الأبدع والأجمل. وبدأت أسترجع المشهد الذي كتبته. فبدا مثل ألوان تتلاشى وتتشكل أمام عيني. وكلمات تتحول إلى لوحة فنية آسرة. كان الخيال يسري بداخلي كنهر جارٍ بحرية، ينقلني من مغامرة إلى أخرى، ويدفعني لأستكشف أعماق الخيال وأبني عوالم جديدة. وبينما أنا في هذه الحالة، لم أشعر إلا والنوم يغمرني بلطف، لأجد نفسي سابحا في نهر الأحلام مرة أخرى.

في الصباح رويت ما رأيته في حلمي على فأر الحكايات، فيما نحن نتشارك فطور الصباح مثل ملكين عظيمين. رأيته ينظر إلي كالمشدوه، ثم بدت لي شفتاه تفتران عن ابتسامة ساخرة وقال بغير تأدب: «أنتم معشر البشر مخلوقات حالمة... تحلمون كثيرا.»

- ماذا تقصد، جلالتك؟!

- عفوا يا سيدي الأديب المبجل... لا أقصد الذم. أردت فقط أن أعبر عن فكرة.

- وما هي فكرتك يا مفكر؟ هيا عبر ولا تخف.

- بشرط ألا تغضب مني...

- أغضب؟ مم أغضب؟!

- ما قصدته أنكم... لما تمتحنكم الحياة تلوذون بالأحلام، وتنفسون عن الضغوط فيها.

توقفت أتأمل كلام فأر الحكايات وبدا لي صادقا وحكيما حتى أنني لم أسمح لنفسي بالمكابرة.

وأجبته بهدوء: «أنت محق يا عزيزي الفأر... أنت محق.»

نظرت إلى الساعة فوجدتها تقترب من الثامنة. حملت نفسي على عجل وهممت بالخروج بعد أن هيأت نفسي. وخاطبت فأر الحكايات: «لقد أكملت فصلي الأول من روايتي ليلة أمس وهو في درج الطاولة الصغيرة في غرفتي.. احذر أن تقضم من الأوراق شيئا. سأقرأه عليك مساء وتعطيني رأيك فيما كتبت. وسأحضر لك معي شيئا تحبه.»

في طريق عودتي من العمل وقت الغداء تذكرت وعدي لفأر الحكايات، وفكرت في أن أقتني شيئا يحب قضمه، مثل الجبن الأحمر، أو التونة المعلبة، أو شيئا من المكسرات. فمررت على المتجر الكبير واشتريتها جميعا. كانت نيتي أن أغريه لأستبقيه بجواري لأطول مدة ممكنة، حتى أستكمل روايتي الصغيرة، أو جزءا كبيرا منها على الأقل.

عندما عدت للبيت ناديت عليه، بعد أن طرحت كيس الأطعمة التي اشتريتها في مكان مناسب ليراه بسهولة. ولما خرج من جحره بادرني بالعويل: «أنا أتضور جوعا يا سيدي، لم تترك لي شيئا من الأكل حتى أنني فكرت في...».

ثم توقف عن العويل، ورأيته يحرك شاربه وأنفه يتشمم رائحة ما، وصاح: «ماذا في الكيس ذاك يا سيدي؟»

وأجبته بابتسامة هادئة: «أُنظر بنفسك يا صاح.»

رأيته يتسلق الكرسي برشاقة، ثم يعلو المائدة المربعة، ويقفز إلى داخل كيس المشتريات. هممت بالصراخ لكنني أحجمت وتركته يكتشف بنفسه الأطعمة التي آثرته بها. وبعد أن عبر بكلمات قليلة عن تعجبه وسعادته وامتنانه تجاه لفتتي الجميلة، بدأنا في مشاركة وجبة لذيذة معا. وتمنى فأر الحكايات لو تستمر أفكاري النيرة التي تصب في هذا الاتجاه.

أكملنا وجبتنا وتبادلنا أطراف الحديث عن فكرتني الإبداعية ورحلتي في عالم الكتابة. فقد صارت هاجسي الأوحد ولا سيما مذ نجحت في استكمال جزء منها.

كان فأر الحكايات منصتا جيدا ولاحظت أنه فهم المسألة، فراح يعرب عن إعجابه بما أقدمت عليه، وبطموحي في أن أصبح كاتبا روائيا لا يشق له غبار، يقرأ له القاصي والداني. وتمنى لو تستمر أفكاري في التوالد والتناسل مثل الفئران لتحفيزي على تطوير كتابتي، وقال مشجعا: «أنت تملك موهبة كبيرة، وأعتقد أن روايتك ستكون ناجحة ولن يقوى أي فأر على قضمها.»

شكرته على دعمه، وقلت له: «أنت فأر رائع، واستعاراتك الفأرية راقت لي كثيرا.»

في ذلك المساء، في نهاية الأسبوع، وفي تلك الليلة التي تصادف بداية مراجعة ما كتبت على فأر الحكايات، راودتني فكرة بأن أجعلها ليلة خاصة، بطقوس خاصة، تجلب لنا الاسترخاء والإلهام. وأن أكرس هذه اللحظة لتقديم شيء استثنائي لصديقي الفأر.

بعد العشاء مباشرة، شرعت في إعداد جو دافئ ومريح في غرفتي حيث أريكتي القرمزية التي لم أر مثلها في البلاد. أضأت مصباح السرير الخافت لإضفاء جو مميز

على المكان، وأحرقت عودا من الطيب. وجهزت إبريقا من الشاي الساخن، وصحنا من البسكويت بالشكولاتة، وكثيرا من المكسرات المحبوبة عند فأر الحكايات.

قعدت على أريكتي القرمزية البهية، ودعوت فأر الحكايات للانضمام إلي بإشارة مني. ورأيته يسلك طريقه بحذر ويقترب من المحل حيث كنت قاعدا، ورأيته يعبر عن انبهاره بما تراه عيناه الصغيرتان، وما يصل إلى أنفه المدبب من روائح غريبة.

بدأت بالحديث معه بصوت هادئ ولطيف، وأخبرته بأن هذه الليلة ستكون ليلة خاصة ومميزة. طلبت منه أن يأخذ مكانه على الوسادة الملكية، واتفقت معه على ألا نتناول شيئا حتى نستكمل قراءة الفصل كاملا. واشترطت عليه أن يركز معي حتى يشاركني في تطوير القصة وجعلها أفضل.

لم يكن لدى فأر الحكايات أي مانع فيما اقترحته عليه ما دام سيحصل على غنيمته في نهاية الجلسة. وبدا لي مرتاحا وسعيدا بهذا التغيير الملاحظ. وشكرته على ردة فعله الإيجابية تجاه مقترحي. قطعا ستكون لحظات سعيدة لتحفيزي على مواصلة الكتابة، واستمرار فأر الحكايات في حصوله على مكافأته بين الحين والحين. لكنني كنت أشعر بأن مثل هذه اللحظات الخاصة ستقوي علاقتي به. وتمنيت أن تستمر هذه العلاقة الأدبية والصداقة النادرة بيننا، وأن نحيا مستقبلا ليالي مميزة نخصصها لمراجعة ما أكتبه ومشاركته أفكاري وأحلامي.

أمسكت مسودة الأوراق وأخذت نفسا عميقا، كنت مستعدا لمشاركة الكتابة مع سميري. رميت بنظري إليه وبدا لي جاهزا للاستماع بانتباه. وبدأت بقراءة كلماتي بعناية، وكان هو يصغي بانتباه شديد. كانت لحظة مميزة وملهمة وأنا أشارك جزءا

من جهدي الأدبي مع متلق يقرأني وجها لوجه، أرى تفاعله واهتمامه يعززان بداخلي الرغبة في الاستمرار وبلوغ الأفضل والأحسن.

كانت الساعة تشير إلى العاشرة مساء عندما أنهيت قراءة الفصل كاملا. كنت قد اجتهدت في تقديم النص في أحسن صورة ممكنة، والآن أتطلع لردة فعل فأر الحكايات وتعليقاته حول ما قدمته. بدا لي مهتما ومتفهما لمجهودي. وبدأ يناقشني في بعض التفاصيل والأحداث وتبادلنا الآراء فيها. كانت لحظة هادئة ومثمرة، وأجمعنا رأينا على أن ندخل تعديلات على العمل سويا، وأن نعمل على تحسين النص وتطويره. وبالفعل فقد كانت تمور في رأسه الصغير أفكار جديدة وتحسينات رغبت في تطبيقها. وبهذه الطريقة يمكنني الاستمرار في تطوير الرواية وتحقيق التقدم المرجو في مشروعي بمشاركة هذا الصغير المدهش.

وضعت المسودة جانبا، وأعطيت الضوء الأخضر لفأر الحكايات ببدء تناول ما لذ وطاب ومَلُح من البسكويت والمكسرات. كان الشاي دافئا فلم يعجبني ذوقه. فكرت في إعادة تسخينه لكنني تكاسلت وشربته كما هو. لم أرد أن تفوتني فرصة مواصلة النقاش مع فأر الحكايات. وسألته، وهو منشغل بالأكل بالتذاذ وعيناه شبه مغمضتين، حول ما يمكن أن يتضمنه الفصل التالي من أحداث وشخصيات. فتح عينيه قليلا وقال: «لا خوف عليك يا صاحبي فأنت كاتب ماهر وموهوب.»

كان فأر الحكايات يناديني بصاحبي أحيانا عندما يسدي إلي نصيحة أو يمدحني. وقلت له: «أتعتقد ذلك حقا أم إنك تراوغ وتداهن من أجل المكسرات؟ هل تراني جديرا بلقب كاتب روائي؟»

فتح فأر الحكايات عينيه تماما وقال: «سيدي... هل ترتاب في ذلك؟!»

سادت لحظة من الصمت بيننا ما عدا صوت قرمشة المكسرات ورشفات الشاي الفاتر. أخذت نفسا عميقا، وقلت له: «ينتابني أحيانا بعض الشك في قدرتي على تحرير مئة صفحة، أو مئتين، أو أكثر. من أين لي بهذا النفس وهذا الصبر الذي يملكه كبار الأدباء الذين كتبوا مئات الصفحات، بل ألوفها؟ من أين لي بالصبر سنوات طويلة منكبا على هذه الأوراق أكتب وأشطب وأمزق؟ لا يمضي علي وقت إلا تساءلت عما إن كنت سأصل يوما ما إلى هدفي الذي تحدثت عنه في لحظات الحماسة والإلهام. فأحيانا أحس بأن الأفكار تطاوعني، والكلمات تنساب كالماء. وأحيانا أخرى تبدو عصية كما لو أن العدم ابتلعها ولم يعد لها وجود. ولكن ما يضطرني دائما إلى الاستمرار وعدم الانقطاع هو هذا الشغف بالكتابة الذي استيقظ للتو، ورغبتي في تقديم شيء فريد وجديد أثبت به نفسي في عالم رتيب وقاتل.»

نظرت إلى فأر الحكايات فوجدته يترنح من أثر النعاس، كانت جفناه ذابلتين، ورأسه يتدلى تارة ويثبت تارة أخرى. ولما التقطت أذناه البارزتان صوت سعالي انتفض في مكانه وراح يحملق في ويتثاءب.

وخاطبته بهدوء: «أعتقد أن الوقت قد حان لنأوي إلى الفراش الدافئ بعد هذه القعدة الممتعة والنقاش المفيد.»

وقال وهو يتثاءب: «أنت محق يا سيدي فأنا متهالك وناعس... ولكن ما كتبته أعجبني بصدق.»

كانت ليلة لامتحان بدايتي في كتابة أول فصل من فصول روايتي المنتظرة. شكرت فأر الحكايات على كلماته اللطيفة وقلت بابتسامة متواضعة: «شكرا لك،

يا صديقي.. أنت دائما تحفزني، وأنا ممتن لذلك. دعنا ننهي هذه الليلة وننام، لنريح هذين الرأسين وهذه العيون الكليلة. وسنتابع حوارنا في أمور أخرى غدا.»

كان النعاس قد استولى على فأر الحكايات فحمل نفسه إلى صندوق الأحذية وارتمى على فراشه الوثير من دون مقدمات، وسمعته يغط في نوم عميق. أما أنا فأخذت أتأمل في صفحات مسودة الرواية أمامي. كانت لحظة شعرت فيها بالتأثر والحماس الذي ينبغي أن يشعر به الكتاب المبتدئون.

شعرت بالبرودة تسري بين جوانبي. وبعد أن أطفأت الأنوار، أعددت نفسي لنوم هادئ وأحلام قد تأتي وقد لا تأتي في هذا الوقت المتأخر من الليل.

أويت إلى الفراش متخما بالأفكار والأحلام. وبدأ النعاس يتسلل إلى رأسي ببطء. كان السكون يسود الغرفة، ولم يبق إلا صوت أنفاسنا الهادئة، وضوء خافت يتسلل من النافذة الخشبية ومن تحت الباب.

رحت أطلب النوم حثيثا، لكن الأفكار لم تزل تراودني بقوة وتقض مضجعي، وكأنها تريد أن تجد طريقها إلى سطور الرواية في الحال وليس في المآل. كنت أعلم أنني لا أستطيع تجاهل هذه اللحظة الإبداعية، حتى وإن كنت محاطا بجو من الوسن اللذيذ.

حملت أوراقي وتسللت خفية إلى المطبخ كي لا أوقظ فأر الحكايات. حركت الكرسي بهدوء تام وقعدت إلى المائدة المربعة. وبدأت في كتابة بضع جمل استهللت بها بداية الفصل الثاني. كانت الجمل تحمل أفكارا جديدة استولت علي وخفت أن ترحل إن لم أقيدها الآن. كتبت صفحتين ونصف الصفحة، ولما تأكدت من تسجيل ما جال بفكري وضعت نقطة في آخر السطر، وعدت إلى مهجعي.

(٢٧)

في الصباح أيقظني المنبه باكرا مع أنني سهرت لساعة متأخرة. إنها عادة الاستيقاظ التي تفرضها أيام العمل.

كان الجو هادئا في الخارج لكن نشرة الأحوال الجوية كانت تحدثت أمس عن تغير كبير مرتقب في حالة الطقس بدءا من أمسية اليوم. رميت ببصري إلى سرير فأر الحكايات فلم أره. قصدت الحمام على عجل، وفيما أنا أهم بالدخول لمحته مكورا في مكانه. فركت عيني وتمتمت: «عجيب! كان هنا؟ كيف لم أره؟»

استيقظ فأر الحكايات بتثاؤب ونظر إلي بعينين ناعستين. تمدد وتقلص في مكانه وخاطبني بصوت خفيت: «صباح الخير أيها الكاتب المبجل... مالك تبدو مشدوها ومحمر العينين؟»

ابتسمت وسألته: «ألم تغادر سريرك قبل لحظات؟!»

وأجابني بخبثه المعهود: «كلا! هل تريدني أن أغادر يا سيدي!»

- لا... لا تسئ فهمي... حسنا انس الأمر.

الحقيقة يا سادتي، أنني صرت أتوهم كثيرا في الآونة الأخيرة. لم يكن الأمر يتعلق فقط بأحلام اليقظة التي صار تسللها إلى واقعي يتكرر يوميا مؤخرا، بل بشيء أعمق. شيء يلون حواسي ويجعل الخيال يتداخل بلا منطق مع الحقيقة برأسي. وصرت أشعر بأنني أفقد قدرتي على التمييز بين الواقعي واللاواقعي.

وفيما أنا شارد الذهن أفكر في حالي خاطبني فأر الحكايات بصوت واضح: «تبدو متعبا يا سيدي وبحاجة إلى فنجان قهوة من الحجم الكبير لاستعادة قوتك الذهنية.»

- أنت محق يا صاحبي... يبدو أن ذهني المكدود بحاجة إلى مقدار من الراحة والكافيين ليستعيد طاقته.

- قم إذن وحضر لنا شيئا نصطبح عليه معا في هذا الجو البارد.

- هل تشعر بالبرد؟

- نعم يا سيدي... وحبذا لو أحضرت لنا مدفأة مثل مدفأة جارنا المسن.

- مدفأة مثل مدفأة جارنا؟

- أجل يا سيدي، مدفأة، نواجه بها برد الشتاء. أتوقع أن يهجم علينا البرد القارس قريبا.

استمعت لما قاله فأر الحكايات وأدركت أنه كان محقا. فالشتاء قريب جدا، وكان يجب علي التفكير في التدابير اللازمة لمواجهة البرد. كيف لم أفكر في شراء مدفأة؟!

قلت له بروية بعدما فكرت في أن وجود مدفأة سيشجعه أكثر على البقاء معي: «أوافقك الرأي يا بطل. فلنبحث عن مدفأة مناسبة للغرفة لنجعلها دافئة ومريحة.»

في أثناء تناول الفطور الصباحي تناسيت أمر أوهامي وتخيلاتي وسايرت فأر الحكايات في مقترحه وبدأنا نفكر في الخيارات المتاحة لنا. قررنا بعد مشاورات مضنية أن نزور متجر الأثاث والأجهزة المنزلية لاختيار مدفأة تناسب غرفتنا. وفي الوقت الذي كنا نخطط فيه لذلك، تابعنا الحديث عن الرواية وكيف ستتطور الأحداث في الفصل القادم.

قال فأر الحكايات: «لا شك أن التكور أمام المدفأة في فصل الشتاء سيجعل الأمور أكثر دفئا وراحة في أثناء ممارسة الكتابة..»

وتابع متحمسا: «إنها فكرة رائعة. آمل أن نختار مدفأة تناسب ذوقنا وغرفتنا. وبشأن الرواية، سنستمر في كتابتها بحماس، ولن ندع البرد يثني من عزيمتنا.»

أدهشني حماسه الزائد، وقلت له: «أراك متحمسا أكثر مني!»

ضحك فأر الحكايات وأجاب مغتبطا: «ربما... نعم، أنا متحمس للغاية بسبب أني أهوى حياة المغامرات. وبوسعنا أن نتشارك هذا الحماس ونعيش حياة المغامرة ولو في الخيال.»

هممت بأن أهتف وأخبر فأر الحكايات بما يدور بذهني بلغة أدبية جميلة فأقول:

«لقد كانت هذه اللحظات الجميلة معك تذكيرا لي بأهمية الدعم والتشجيع في عالم الكتابة. إنني ممتن لوجود صديق مثلك في رحلتي الأدبية، وإنني أدرك أننا سنتخطى معا تحديات البرد وأي صعاب أخرى قد تظهر في طريقنا. إنني أحس بذلك التحفيز والإلهام وأشعر أن الصداقة معك ليست مجرد مرافقة للكتابة، بل أيضا شراكة لتحقيق أهدافنا الحياتية نحن الاثنين.»

بيد أنني آثرت أن أحدثه بلغة اليومي والمبتذل فقلت: «فلنبدأ في التخطيط لشراء المدفأة، وكيف يمكن أن نجعل من المكان مكانا دافئا لمغامراتنا القادمة في كتابة الرواية.»

وتابعت: «ما رأيك في أن ترافقني في هذه الجولة إلى متاجر المدينة؟»

فتح فأر الحكايات عينيه بدهشة وقال: «أنت جاد؟ أتريد أن أرافقك للمتاجر حيث الناس والقطط المتربصة؟»

وطمأنته: «لا تخف، ستكون محصنا. وستحظى بفرصة لطرد بعض الملل من قلبك الصغير.»

- نعم سأطرد الملل والكلل مثلما طردت عني قلبي في رحلتنا إلى الشاطئ الصخري.

- الوضع مختلف يا صاح. أفكر في أن أضعك في جيب معطفي الشتوي.. ما رأيك؟

- الجيب الداخلي أم الخارجي؟

- كما ترغب أنت. المهم أن تكون في أمان وراحة، وأن نتواصل بيسر.

- إذن فالجيب الداخلي أنسب.

- اتفقنا.

خرجنا من المنزل وقصدنا وسط المدينة، حيث متاجر بيع الأثاث والأجهزة المنزلية. مررنا بأول متجر في بداية الشارع الرئيس ودخلناه وشرعنا في معاينة المدفآت المعروضة. كان منها ما يعمل بالغاز، ومنها ما يعمل بالكهرباء، في أحجام مختلفة وعديدة. كان فأر الحكايات يتلصص من طرف خفي في جيب معطفي. وخاطبته مقترحا: «أعتقد أنني سأختار هذه المدفأة الكهربائية التي تعمل بالزيت، فسعرها في المتناول.»

- تعمل بالزيت؟!

- نعم، بالزيت. إنها آمنة ومريحة وسهلة التشغيل.

- وكيف تعمل بالزيت؟

- سأخبرك لاحقا لما نجربها.

تابعنا البحث في المتجر، واستقر رأيي في نهاية جولتنا على المدفأة الكهربائية التي تعمل بالزيت. اخترت طرازا صغير الحجم من أجل سهولة حمله، ولأنني

اعتقدت أنها تناسب شقتي الصغيرة. وعدت أدراجي وسط نظرات الفضوليين برفقة المدفأة وفأر الحكايات، فرحين بهذا الضيف الجديد.

كان الجو يزداد برودة، والرياح تهب بعنف. وكان يصل إلى مسامعي بعضا من أصوات أمواج البحر الهادر. وقلت لفأر الحكايات: «لنسرع أكثر فالعاصفة وشيكة.»

ورد علي مازحا: «لست أنا من يسير مثل البطة».

وصلت إلى الحي متعبا، ومن الصدف التي كانت تزعجني كثيرا أن يقابلني جاري المسن عند المدخل أو في رواق المبنى، فيطرح علي بعضا من أسئلته الغريبة. كنت أتوقع أنه لو يقابلني اليوم مرتديا معطفي الشتوي وحاملا علبة من الورق المقوى كبيرة الحجم فسيسألني عن ذلك كله بلهجته الساخرة. لكنني لا أرى العجوز هذه الأيام ولا أحس بوجوده بشقته. وقد أثار غيابه المفاجئ شيئا من التوجس بداخلي.

(٢٨)

يحل فصل الشتاء رسميا، وستحل بداية العام الجديد عما قريب...

أشعلت مدفأتي الجديدة، وشرعت أطالع في كتاب «كيف تكتب روايتك الأولى» من أجل استذكار بعض النصائح وكيف أطبقها في كتابة روايتي التي استكملت منها ثلاثة فصول كاملة. وفي كل مرة أنهي فيها فصلا كنت أعرضه على فأر الحكايات ليبدي فيه رأيه. وبعد أن أعدل فيه بعض التفاصيل أنغمس مرة أخرى في كتابة فصل جديد أستكمل معه بناء عالم الشخصيات والأحداث. كنت

ممتنا لفأر الحكايات على إنصاته، وعلى ما تكرم به من ملاحظات سديدة. أما هو فكان في غاية السعادة بفكرة سهرة المكسرات والبسكويت المغلف بالشكولاتة.

قبل رأس العام الجديد بيوم واحد حدث شيء أحزنني، فقد بلغني نبأ وفاة جاري في بيت ابنه. أبلغني بذلك بقال الحي لما سألته عن سر غيابه المفاجئ. أخبرني أنه أصيب بالزكام ولم يستطع مقاومة المرض بسبب كبره وضعفه. شعرت بتأنيب الضمير لعدم سؤالي عن حاله في المدة الأخيرة. ولما جاء ابنه لنقل متاعه وأثاث بيته أبلغته عزائي وأسفي. وحرصت على أن أنقل له صورة عن حسن علاقتي بوالده فقلت له إنه كان نعم الجار. لم ألق منه إلا كل خير. وكان قانعا بحاله، وما كان ليستدين إبرة. وسألته عن والدته فأخبرني أنها ستبقى معه ليعتني بها حيث يقيم.

مضى ذلك اليوم ثقيلا على قلبي، ولما أخبرت فأر الحكايات بالأمر أبدى حزنا ممزوجا بالأسى. ونطق بهذه العبارة الحكيمة: «لا شك أن مجرد التفكير في الموت وفقدان شخص قريب أمر محزن للغاية، ولكنها سنة الحياة.» ثم راح يحكي لي بأسى عمن فقد من أفراد عائلته الكبيرة. أما أنا فكنت أفكر في أرملة الجار فزاد انقباضي لما تذكرت قسَمها ذاك الذي تلفظت به قبل أشهر.

بعد أيام قليلة، وفي عطلة نهاية الأسبوع على وجه التحديد، سمعت جلبة أمام بيت جاري الراحل. دفعني الفضول لمعرفة مصدر الجلبة فنظرت من خلال عدسة الباب فرأيت صاحبة البناية برفقة ابنها وشخص ثالث. أدركت للتو أنه المستأجر الجديد جاءت به لتفقد الشقة.

بعد يومين حين عودتي من العمل مساء، رأيت شاحنة متوسطة الحجم متوقفة عند مدخل البناية. كانت معبأة بالأثاث ولوازم المطبخ والأفرشة. توقعت أنه جاري الجديد أحضر أثاثه إلى الشقة المستأجرة. وفكرت في أن أساعده في نقل

الأمتعة الثقيلة، لكنني لم أتعرف إليه بعد. وحين رأيته وعرفته تبادلنا التحية وتعارفنا على عجل وعرضت عليه المساعدة فشكرني وقال مبتسما: «صاحب الشاحنة يساعدني. لم يتبق الكثير، والمسافة قريبة.»

بدا لي الجار الجديد شابا ناضجا. أحسبه في نهاية العشرينات أو بداية الثلاثينات. والظاهر من ملامحه وطريقة كلامه ببشاشة أنه شخص لطيف. كان يبدو فطنا ونشطا، لكنه حيي إلى درجة كبيرة. وبالنسبة لي لم يكن يعنيني من أمره أن أقف على تفاصيل حياته أو أي شيء آخر يتعلق باهتماماته. ما كان يهمني أكثر هو التعايش بسلام، والاحترام المتبادل، وعدم الخوض في الخصوصيات، والاستعداد لمد يد العون أو أي دعم آخر، ما يمكن أن يجعل من العلاقة بين الجيران علاقة إيجابية وصحية.

بعد مرور ساعة سمعت رنين الجرس، ثم طرقا خفيفا على الباب. أدركت على الفور أن الطارق هو الجار الجديد... ماذا يريد؟

فتحت الباب بسرعة، وبمجرد فتحي إياه لمحته يتراجع بخطوتين ويشيح بوجهه كيلا يقع بصره على ما بداخل الغرفة كشأن المتطفلين. لم يفاجئني سلوكه المهذب هذا فقد كان سلوكا متبعا عند غالب أهل المنطقة والبلد احتراما للخصوصيات. تبادلنا التحية مرة أخرى، وسألته عن الأثاث، فأجابني بأنه أدخله كله، ولكنه نسي إحضار مفك البراغي. وطلب مني بلطف إن كان بإمكاني إعارته مفكا من الحجم الكبير إن كان بحوزتي.

بدا واضحا أنه في حاجة ماسة إلى المساعدة في تركيب الأثاث وترتيبه، فقد كان بمفرده، ولذا فكرت في أن أعينه إن سمح بذلك. أخذت المفك وقدمته له وعبرت له عن استعدادي للمساعدة في أي شيء آخر. شكرني بصدق، وللمرة الثانية

راح يعتذر عن عدم حاجته للمساعدة، وأخبرني أنها أشغال بسيطة لا تستدعي ذلك. بدا واضحا أنه شخص متحفظ وحذر. وذكرني بنفسي لما غادرت قريتي والتحقت بالمدينة أول مرة. لذلك لم يخب ظني كثيرا. وجالت بذهني أسئلة عابرة عن المنطقة التي جاء منها، ومحل سكناه السابق، والعمل الذي يشغله في حياته...

لم أكن مستعجلا في العثور على إجابات لأسئلتي هاته. فالزمن، طال أم قصر، كفيل بالإجابة عنها. وأنا لست من ذلك النوع الذي يقتله الفضول بشأن خصوصيات الآخرين، والتسلل إلى تفاصيل حياتهم الشخصية. والحق يقال إنني شعرت بنوع من الارتياح لما أدركت أن هذا الشخص يشبهني في بعض النواحي، وفرحت لذلك. فأن تجد شخصا يشبهك فهذا يجعلك تطمئن إليه. وتستيقن من أنك لست الطائر الوحيد الذي يملك بعض الصفات التي يستأثر بها لنفسه من دون الآخرين.

تركت الجار منشغلا بأموره، وانصرفت إلى شؤوني. كان الظلام قد حل بسرعة، والجو في الخارج شتوي يبعث على الرغبة في الاستمتاع بدفء المنزل، والتفكير في تحضير وجبة ساخنة للعشاء.

أشعلت مدفأتي الجديدة وأخذت متكأ على الأريكة لأشاهد التلفاز كعادتي في مثل هذا الوقت. في الخارج ساد صمت مؤقت سرعان ما قطعته أمطار خفيفة بدأت بالنزول محدثة أصواتا هادئة تبعث على الاسترخاء، غير أن أصوات الخبط والسحب والدفع الآتية من شقة الجار الجديد كانت تقطع علي لحظات الهدوء والتأمل.

تذكرت أن قطع أثاث الجار الجديد كانت تبدو في معظمها في حالة جيدة أو جديدة. رأيت حقائب كثيرة، والسرير كان لشخصين. وخمنت من ملاحظاتي أنه

يحضر لقران وشيك، أو إنه تزوج حديثا في بيت العائلة ثم قرر الاستقلال ببيته الخاص.

داهمتني هذه الأفكار والتخمينات وأنا أترشف الشاي الساخن وأقرمش المكسرات التي اشتريتها لإغواء فأر الحكايات. كنت غارقا في أريكتي محدقا في شاشة التلفاز الصغيرة. وفيما أنا مطمئن في صندوق اللاشيء خاصتي إذ بفأر الحكايات ينط علي من العدم ويفاجئني بصراخه ونحيبه من مسافة قريبة: «مكسراتي! أنت تلتهم مكسراتي؟ كيف تلتهمها خفية عني أيها الخائن!!»

لا أخفي عليكم أنه أصابني بالذهول كمن يصب عليه الماء البارد.

نظرت إليه بشزر وقلت: «أفزعتني يا... هل ناديتني بالخائن يا فأر؟»

- نعم... وبالكاتب الخائب أيضا...

- ماذا تقول؟؟

لم يتفوه بالمزيد... وساد صمت عابر بيننا قطعته بدفع طبق المكسرات ناحيته.

كان الغضب باديا على وجهه، كعادته عندما يقرصه الجوع. ولما تثبت من بقاء كمية كافية من المكسرات نكس رأسه خجلا وانسحب حتى دنا من المدفأة وأقعى أمامها، وقال باستحياء: «آسف يا سيدي لم أقصد الإساءة. توهمت أنك لم تترك لي شيئا من المكسرات... أنا جائع وحضرتكم توقفتم عن الكتابة ولم تعد تستدعيني لأراجع معك ما تكتبه... لماذا توقفت يا سيدي؟».

كان سؤاله مفهوما ومشروعا، وكان احتجاجه منتظرا إذ أهملته الأيام الماضية بسبب توقفي عن الكتابة، لكن اتهامه لي بالخيانة وبالكاتب الخائب فاجأني وأهانني.

كظمت غيضي وأبديت بعض الإشفاق، وقلت بهدوء: «الحق معك يا صاح... ولتعلم أنني توقفت عن استدعائك بسبب انشغالي بالتفكير والتأمل في الأفكار التي كانت تدور في ذهني. ولم أكن مركزا على الكتابة في تلك اللحظة بسبب تحويلي إلى العمل في منصب جديد بالمكتبة. لكن لا تقلق، فأنت جزء مهم من عالمي الخيالي، وأنا مستعد للعودة للعمل معك والاستماع إلى نصائحك السديدة.»

وتابعت: «كنت فقط بحاجة لأخذ قسط من الراحة بعد تلك الانطلاقة المليئة بالحماس. وبشأن المكسرات فلا تشغل فكرك... سأحضر لك المزيد قبل أن تستكمل ما هو متوفر لدينا هنا.»

رأيت فأر الحكايات يتحول من حالة الانقباض إلى حالة الانبساط في لمح البصر. انفرجت أساريره وسألني بابتهاج: «ومتى ترجع للكتابة يا سيدي؟».

وأجبته بابتسامة باهتة: «سأعود قريبا جدا! أنا مستعد لمواصلة الكتابة والتفكير المبدع، فقد أعدت شحن بطاريتي. هل هناك شيء محدد ترغب في أن أستهل به الفصل القادم؟».

ورد بنشاط مصطنع: «رائع أنك عدت بتلك الحماسة التي بدأت بها. أعتقد أنه من المناسب أن تبدأ أنت بكتابة الفصل الجديد. فقد تكون لديك أفكار رائعة جديدة بعد هذه الراحة القصيرة.»

وسألته مجددا: «ماذا لو تشاركني ببضعة أفكار أولية أو نقاط ترغب في أن نركز عليها في هذا الفصل؟».

رأيته يتأفف وأجاب بضجر ممزوج بدعابة: «لا فكرة لدي يا سيدي الآن... لكن بعد العشاء ربما يحضرني شيء من الإلهام.»

اصطنعت ضحكة عالية ثم أمسكت نفسي خشية أن يسمعني جاري الجديد ورفعت من صوت التلفاز. وأطلق فأر الحكايات ضحكته التي تشبه صرير الباب، ثم أمسكنا في الوقت نفسه، وأردفت قائلا: «أنت محق يا صديقي فالبطن عندما تشبع تفسح المجال للعقل ليفكر...».

(٢٩)

في المطبخ تبادلت وفأر المكسرات الحديث والتساؤلات حول الجار الجديد، وحاولنا معا تشكيل صورة عما تكون عليه شخصيته. كنت أحب إعداد الحساء فطبخت منه كمية زائدة، وقلت له: «الظاهر أن جارنا الجديد سيبيت الليلة بمفرده. لا شك أنه منهك ولذا أقترح، تعبيرا منا عن كرمنا واحتفائنا بالجيرة، أن نقدم له وجبة ساخنة. ما رأيك؟»

هز رأسه وأذنيه، وقال متململا: «افعل ما تراه مناسبا يا سيدي الكريم، ولتعلم أننا نحن معشر الفئران نشارككم هذه الصفة في الاهتمام بالآخرين... لكنني مللت تناول الحساء.»

كان الحساء ساخنا جدا، وكنت أخشى ألا يعجب الجار الشاب، لكنني غامرت وخرجت إلى الرواق البارد وطرقت الباب بلطف، ولما فتحه خاطبته بلا مقدمات: «فكرت في أن أحضر لك شيئا ساخنا في هذا البرد.. أرجو أن يعجبك.»

تردد للحظات وقال بنوع من الضجر: «أحضرت وجبة العشاء معي من البيت... لكن لن أحرجك... هذا من لطفك.»

استسمحته بالانصراف بعد أن شكرته على قبوله طبق الحساء. لم أرد أن أمعن أكثر في عرض المساعدة عليه حتى لا أحرجه أكثر فقد بدا لي متحفظا أكثر

من اللزوم. دخلت شقتي وأنا أتساءل بم أخبرته صاحبة البناية عني لما استعلم عن جيرانه المفترضين؟ لا ريب أنها أخبرته بالتفاصيل المملة فهي كثيرة الكلام والمبالغة.

طرحت هذا السؤال على فأر الحكايات ولم يجبني. فقد كان منشغلا بالأكل. كررت طرح السؤال عليه. وفي المرة الثالثة توقف ونظر إلي، وقال بامتعاض: «حساؤك بذوق السكر يا سيدي.»

أخذت الملعقة وتناولت القليل بطرفها. كان مذاق الحساء حلوا حقيقة! هل أضفت له السكر بدلا عن الملح؟! ... يا للفضيحة!

وقلت لفأر الحكايات: «يبدو أنني بدأت أهرف!».

- تعرف!... تعرف ماذا؟!

- أهرف... بالهاء.

- وماذا يعني أنك «تهرف»؟

- يعني أهذي أو أخرف.. لم أعد أفرق بين الملح والسكر.

- أتعني أنك أصبحت تخرف مثل جارنا الراحل؟

- وما أدراك بأنه كان يخرف؟

- كنت تقول عنه إنه كان يخرف في كلامه...

- أجل أصبحت مثله... وربما أكثر. ولكنني أحس بأنك تخفي علي شيئا.

- يبدو أنك لست بخير يا سيدي.

- ألم تكن تتسلل إلى غرفة جارنا الراحل؟

- ماذا؟!

صمت فأر الحكايات برهة ثم راح يعترف: «لا أخفي عليك يا سيدي أنني كنت أتسلل إلى شقته.. وكنت أتحرك بأمان فيها، وأصل إلى كل ما أرغب فيه.»

- هكذا إذن! ولماذا أخفيت عني ذلك؟

- لم أر داع لإخبارك يا سيدي.

- وما الذي وجدته هناك ولم تجده عندي؟

- أشياء كثيرة كانت تحفزني على البقاء هناك؟

- مثل ماذا؟

- مثل الأكل اللذيذ وخاصة الفواكه، كالتفاح، والموز، والعنب، والمشمش.. وأشياء أخرى لا أعرفها...

- وماذا أيضا؟

- مكيف الهواء في وقت الحر والمدفأة في وقت البرد.

- أمم... فهمت الآن.

- أعتذر إليك يا سيدي. نحن معشر الفئران حيث وجدنا بحبوحة العيش فثم نقيم.

- وكنت ترجع إلي لما يغادران شقتهما طبعا؟

- أحيانا...

طأطأ فأر الحكايات رأسه خجلا، ولما رأى وجومي راح يعتذر بصوت فيه انكسار وبحة. كنت قاعدا وقمت. تمشيت قليلا ثم عدت إلى المطبخ. كنت أتضور جوعا وفكرت في إعداد وجبة خفيفة بدل الحساء الحلو. وخاطبته: «أتعلم لم أعد قادرا على تمييز الحقيقة من الوهم.. والكذب من الصدق.. هل أنت حقيقة أم وهم؟».

- أنا حقيقة يا سيدي.

- حقا؟؟

- يبدو أنك تمر بفترة صعبة ومحيرة ... عليك بالاسترخاء يا سيدي.

- لا أشعر أنني بخير... لست بخير..

- سيدي! ...

- لست بخير يا صاحبي.. لست بخير.

(٣٠)

كنت منشغلا بإعداد وجبة خفيفة بدلا عن الحساء الحلو...

وفيما أنا أفكر في ردة فعل الجار الجديد بشأن ذلك، سمعت فأر الحكايات ينطق بعبارة قلبت كياني رأسا على عقب حين قال: «نسيت أن أخبرك يا سيدي أن جارنا السابق كان يشتكي من هلوساتك أيضا.»

توقفت للحظة وسألته باستغراب: «هل سمعته يشتكي مني؟»

- نعم كان يشتكي من هلوساتك يا سيدي...

- من هلوساتي؟! كيف؟

- أجل يا سيدي... قال إنك صرت تتكلم مع نفسك كثيرا في الأشهر الأخيرة. كل ليلة تقريبا...

- منذ متى؟

- مذ تعارفنا في الصيف الذي مضى يا سيدي... ألم تكن تحس بذلك؟

- أنت واثق؟

- واثق جدا.

- وجارنا الراحل كان يشتكي من هلوساتي كل ليلة؟

- أجل يا سيدي.

- هل اشتكاني لصاحبة العمارة؟

- أعتقد. سمعته مرة يقول إنه سيحادثها في أمر إزعاجك له كل ليلة.

- هل أنت متأكد؟ هل اشتكاني لتلك الثرثارة؟

نظر إلي فأر المكسرات بنظرة أعرف معناها، وقال بعد أن بلع ريقه: «ربما!»

لكنه عندما رأى وجهي يضطرم استدرك قائلا: «ولكنها تبقى مجرد أقاويل... أنت لست كما يدعون.»

- يدعون ماذا؟؟

- بأنك.. رجل مختل أو مجنون.

لم أرد سماع المزيد، وسحبت نفسي إلى غرفة النوم وأنا أغمغم: «فهمت الآن... الآن فهمت.»

وسمعت فأر المكسرات يستوقفني ويصيح: «والعشاء؟ ... لم تنه عشاءك يا سيدي.»

لم أغسل أطرافي ولا فمي تلك الليلة. وفي طريقي إلى غرفة النوم شعرت بقشعريرة، وداهمني دوار مفاجئ وحمى مباغتة. أحسست بثقل برأسي لم أحس بمثله من قبل، فاستلقيت بسرعة على الأريكة لبعض الوقت ريثما أستعيد توازني. كان الألم برأسي يزداد، وفكرت في تناول حبة دواء مهدئ. ونظرت في الساعة فوجدتها تشير إلى الثامنة تماما. قمت وأوصدت باب الغرفة برفق وأطفأت الأنوار. واستلقيت على الأريكة مجددا وأغفيت من دون أن أتدثر. ولما فتحت عيني وجدت السواد يلفني والبرد القارس يحيط بي من كل جانب. لم يعد رأسي يؤلمني كما في

السابق، لكن مشاعر الرهبة من ظلمة المكان وبرده اجتاحتني. وبدت لي الغرفة موحشة فأصابني الوجل.

نهضت على وجه السرعة مدفوعا بالرغبة في إشعال الضوء لتبديد هذا الظلام المخيف. لكن ضوء المصباح كان خافتا كأنه شمعة تحتضر. نظرت إلى ساعة المنبه فوجدتها تشير إلى منتصف الليل... هل أغفيت كل هذا الوقت؟؟

عدوت إلى المطبخ بسرعة وبحثت عن فأر الحكايات. ناديت عليه بصوت خفيض خشية أن يسمعني الجار الجديد. رأيت الطعام على الطاولة بقي على حاله كما تركته وقت العشاء. كنت جائعا لكن لم أكن راغبا في تناول طعام بارد بمفردي في هذا الوقت المتأخر، وتحت هذا الضوء الخافت. كررت مناداتي على فأر الحكايات ورفعت من صوتي قليلا، ولم يكن هناك أي صدى لندائي... ما الذي يجرى معي هاهنا؟؟

زاد الوجل بداخلي ولم أستطع التحكم فيه. كان ضوء المصباح يزداد خفوتا، وكنت أحس بأنني أنهار تدريجيا. حاولت تمالك نفسي من أجل تجاوز حالة عدم اليقين وعدم فهم ما يحدث لي، ولكن قلقي تحول إلى هلع عندما انطفأ المصباح كليا.

مضيت أبحث بفزع عن الولاعة، ولكن محاولاتي باءت بالفشل. كان الصمت رهيبا، والظلام يلتهم الأشياء كلها. وكل دقيقة تمر تزيد من شعوري بالعجز والخوف المتصاعد. وكلما توقفت عن الحركة زادت حدة الفزع بداخلي، وعجزت أكثر عن فهم الحقيقة المرعبة التي أصبحت جزءا منها. كانت اللحظات تتوالى ببطء، والصمت يطبق بثقله على المكان ويجثم على صدري ورأسي.

كان الصمت مخيما كأنه جدار لا يمكن اختراقه... لا حركة ولا أصوات. ليس إلا الظلام يحيط بي ويخنقني حد الموت. بدأت أشعر بأنني أغرق في بحر من الفراغ، حيث لا مخرج ولا سبيل إلى الخلاص أو العودة. وحاولت بما تبقى لدي من قوة أن أواجه هذا الواقع المرير بصبر عظيم. وفي الأخير أيقنت أنني لم أعد منتميا إلى العالم الذي أعرفه، بل دخلت في بُعد جديد لم أكن أعلم بوجوده من قبل.

في هذا الخضم من اللايقين والتيه يظهر لي فجأة في البعيد قبس من نور ينبثق هناك ويتسرب عبر الظلام الكئيب. وألمح بصيص الضوء يستحيل بسرعة إلى شعاع حارق فيبغتني ويصيب عيني بالعمى ورأسي بالدوار الشديد. وجثمت على الأرض مستسلما وحاولت الصراخ بكل جهدي، لكن صوتي أبى الخروج وانخنق في حلقي. وبقيت أقاوم المخاوف التي ملأت كياني، والعمى المفاجئ الذي أصاب بصري. وفي هذه اللحظات، لحظات اليأس والبؤس التي أحاطت بي من كل جانب، يتسلل فجأة صوت هامس إلى مسمعي آتيا من مكان قريب ومرددا ببطء وبرود: «استيقظْ... استيقظْ».




النّهاية

هلوسات الأمسيات

••رواية ••



يتسبب الروتين اليومي في المدينة وضغوط العمل في هروب الكاتب الهاوي الذي يعمل بجد في المكتبة العمومية من واقعه والعيش في عالم خيالي، يحيا فيه مع الكثير من الهلوسات الليلية والأحلام العجيبة. وفي سبيل التنفيس عن إحساسه باللاجدوى بسبب عزلته الاجتماعية يحدث أن يعاوده الحنين لهوايته القديمة ويفكر في كتابة روايته الأولى طلبا للشهرة والأضواء بعد أن انقطع طويلا عن ممارسة الكتابة والاكتفاء بالقراءة بين الفينة والأخرى. وبعد كتابة فصول من روايته الأولى يكتشف أن ما كتبه كان جزءا من هلوساته وأنه لم يكتب شيئا في واقع الأمر.

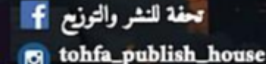
عمر بن دحمان

TEL:0676890467
E.mail:tohfapublishhouse@gmail

ISBN: 978-9969-9783-4-6







ولاية باتنة- بلدية بوزينة
-حي تيغيراسين- أورير.